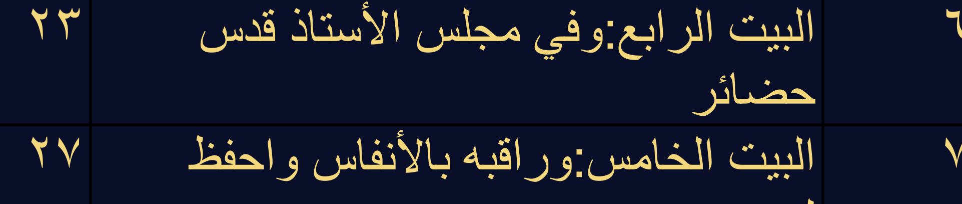

النسائم المدنية
فى شرح
القصيدة الخضرية
نظم أبياتها الشيخ / جابر بغدادى
شرحها وعلق عليها السيد / محمد ابو الفضل





الفهرس































مقدمة



الحمد لله وكفى وسلاماً على عباده الذين اصطفى وبعد :

فهذه تعليقات موجزة على متن القصيدة الخضرية للشيخ جابر بغدادي ، جمعتها من دروسه وأقواله وأقوال بعض الصالحين وأهل العلم الربانيين ، وهي دروس مهمة لما تحتويه من آداب مهمة يجب على كل مريد أن يتسلح بها حتى تعينه في سيره وترحاله لمولاه ، لأن الله شاء بدء السفر منذ يوم ألست بربكم ، ففي الله فسافر لا إليه ،ولا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى ، يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو نفس المكان الذي ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون" وأن إلى ربك المنتهى ".

وهذه القصيدة تتضمن بعض آداب السفر والترحال وتعين السائر على تجاوز عقبات الطريق ، أسأل الله أن ينفع بها وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

الخويدم الفقير/ محمد أبوالفضل











القَصِيدَةُ الخَضْرِيةُ

وفي ذكْرِ مُوسى الرَمْزُ خَضْرُ إِشَارَةٍ
ليفْنَى مُرَادُكَ في مُرِيدِكَ بالرُشْدِ

وَدُونَ اصْطبارِ السالكينَ لخَضْرِهم
تَعَرَّضَ أَهْلُ الإِعْتَراضِ إِلى طَرْدِ

وَعِنْد فِرَارِ السَالِكِينَ لِكَهْفِهم
تُزَاورُهُم شَمْسُ الحَقِيقَةِ بِالرِفْدِ

وَفِي مَجْلِسِ الأُسْتَاذِ قُدْسُ حَضَائِرٍ
وَكَوْثَرُ رَيَّانِ الفُتُوحِ مَعَ المَدَدِ

وَرَاقِبْهُ بالأنْفَاسِ وَاحْفَظْ لِسره
وَخَلِ كُؤوسَكَ مِنْ غُرُورِكَ وَالعَدِّ

وما لَمْ تَكُنْ تُغْنِيكَ نَظْرَةُ ودِنَا
فَلَنْ يُنْقِذَ الغَرْقَى النِدَاءُ بِلا يَدِّ









وَخَــرْقُ سَــفِــينِ الـنـاسِـكِـينَ أمـانُـهــا
وَفِـي الـسَـتْـرِ تَـاجٌ لـلـكَـرَامَـةِ والــرِفْـد

وَمَـا لَـمْ تُــرِدْ زَهْــوَ الـكَـرَامَــةِ يَا فَتَـى
سَتُـنْـصَــرُ حَـتْـمَــاً بِـالـتَـأيِـيد وَلَا بُــدِ

وَصُـحْـبَــةُ أهْــلِ اللــهِ بَــحْــرُ كَــرَائِــم
وَوَارِدُ يَـــمِّ الـعَــارِفِــينَ فَفي سَـعْـــدِ

وصـحـبَـةُ أهــلِ اللـغْـوِ تُـهْـلِكُ يَا فَتى
كَـمـنْ عَـاشَ فَـرْدَاً بِـالـقُـبُـورِ بِـلا وَفْــدِ

وَمَـنْ ضَـيَّـعَ الأَوْقَـاتَ بـالـلـغْــوِ لاهــيــاً
كَمَـنْ هَـدَرَ الـدُرَّ الـنَـظِـيـمَ مِـن الـعُـقْــدِ

وصِـدْقُ الـعَـزَائـمِ والـمَـسِـيرُ على هُـدَى
وَإِيَـثَــارُ مَـنْ تَـهـوَى عَـلى الـنَـفْـسِ والنِّدِ

وَفِـي الـبِـرِ سِـرِ الـسِـرِ وَالـجُـودِ رِفْـعَـةً
وَبِـالـبُـخْـلِ تَـقْـطَـعُ مَـا يَـفِـيـضُ مِـنَ الـمَـدِ








وخيـرُ وجُـوهِ الـبِرِ قَـصْـدٌ مُـجَـرِدٌ
وطُـهْـرٌ وتَـسْلِيـمٌ وَجُـودٌ معَ الـرُشْـدِ

وَمِـنْ بَعدِ مَحْـوِكَ يَا مُـرِيدُ بِـصَحْـوَةٍ
تَـلَـطفْ لِجَـمْـعِ الـزَادِ وَاهـرَعْ بِـالـجَدِ

فَمَا لَمْ تُخَـلِّ الـنَّفْـسَ وَتَـسِـيرَ فَـانِـيَـاً
فَما زِدْتَ فِي طَلَبِ القَرِيـبِ سِوَى بُعْدِ



وَسِـرُ بَـقَـاءِ الـعَـارِفِـينَ فَـنَاهُــمُ
بِـمَـشْـهَـدِ تَـفْـرِيـدِ الـجَـلَالَـةِ لِـلأَبَـدِ







وما الفـقْـدُ إلا الـوجْـدُ فَـافْـهَـمْ إِشَـارَتـي
وَبِـالـنَـفْـي إِثْـبَـاتُ الـشُـهُـودِ بِـلا نِـدِ

كَـرَامَةُ أَهْلُ الـحَي صَوْنُ عُـهُودَهمُ
وَيَسْتَوِي الرِضْوَانُ فِي الفَقْدِ وَالوَجْدِ

وفي المَنعِ يَنْبَسطُ العَطاءُ بـحكمـةٍ
وَقَـتْـلُ الـغُــلَامِ هُـو الإِشَـارَةُ بِـالـوِرْدِ










وَتَبلُغُ بِالرِضْوَانِ أَبْلَغَ غَايَةٍ
وَبالسخْطِ إِحْبَاطٌ لعهْدِكَ والوِرْدِ

فغَايةُ أهلِ الودِ فُرْقانُ مَشْهَدٍ
لفرْدٍ تَقَدَّسَ بالكَمَالِ إلى الأبَدِ

وَرَفْعُ الجِدَارِ هُوَ المُرُوءَةُ يَا فَتَى
وَصُنْعُ المَكَارِمِ فِي مُحِبِك وَالنِّدِ



خُذْ العَفْوَ فِي حُلَلِ السَمَاحَةِ يَا فَتَى
تُفْتَّح لَكَ الحَضَرَاتِ فَتْحَاً بِلا رَدِ







وَفِي كَلْبِ أَهَلُ الكَهْفِ سِرُ بِشَارَةٍ
بِأَنَّ الإِسَاءَةَ لَا تَضُرُ مَعَ الودِّ

ولا يُكْثرُ الشَكْوَى مَعَ الحُبِ صَادِقٌ
وَلَا يَقْهَرُ الوسواسُ صَدْرَاً بِه وِدُ

وَما لَمْ يَكُنْ مَا تَدَّعِيهِ حَقِيقَةً
يُطَابِقُ مَا تَطْوِيهِ مِتَ عَلى ضِدِ







تَـنَـزْهَ عَـن الـمَـالِ الـحَـرَامِ تَـوَرُعَـاً
وَخَـلِّ سَـبِـيـلَ الـمُـوبِـقَـاتِ إِلى الأَبَـدِ

فَـلـيـسَ كَـرِيـمَ الـذِكْـرِ مَـا زَادَ وِرْدُهُ
ولَـكِـنَّ وِرْدَ الـعَـارِفِـيـنَ هُـو الـودُ

وَمَا دُمْـتَ بَـيـنَ الـورْدِ والـودِ قَـائِـمَـاً
فَـحَـبْـلُـكَ مَـوْصُـولٌ وَدِيـنُـكَ فِـي رَشَـدِ

وَمَا دُمْـتَ تَـتَـخِـذَ الـطِـرِيـقَ وَسِـيـلَـةً
لِـتَـجْـمَـعَ مَـالَ الـنّـَاسِ أَبْـشِـرْ بِـالـصَـدِ

وَمَـنْ رَامَ أَجْـرَ الــبِـرِ مَـنَّـاً وَلَـمْ يَـرَى
فِـعَـالَ مُـرِيـدٍ ضَـيَّـعَ الـوِرْدَ بِـالـعَـدِّ

فَـخُـذْ سُـلمَ التسليمِ مِـعْـرَاجُ وصلِـنـا
وَسَـبِـحْ لِـرَبِـك بِـالـوِدَادِ مَـعَ الـزُهْـد










١
وفي ذكْرِ مُوسى الـرَمْـزُ خَـضْرُ إِشَارَةٍ
لـيفْنَى مُـرَادُكَ في مُـرِيـدِكَ بـالـرُشْـدِ



يعلمنا شيخنا في هذه القصيدة وفي هذا البيت حال المريد أو السالك ورمز له هنا بموسى الرمز ، مع شيخه ورمز له بالخضر ، وفي ذلك قال بن عجيبة رحمه الله في تفسيره : ـ أخذ الصوفية رضي الله عنهم آداب المريد مع الشيخ من قضية موسى مع الخضر عليهما السلام ، فطريقتهم مبنية على السكوت والتسليم.

ـ ثم بين الشيخ الحكمة من اتباع المريد للشيخ ، فهو عين ما قاله موسى للخضر { هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا} ، أي استأذن موسى وهو النبي عليه السلام المرسل من قبل الحق ، الخضر وهو عبد من عباد الله لكي يصطحبه ليتعلم منه ملاطفة وأدباً وتعلماً مما علمه الله من العلم الذي يدل على الرشد وإصابة الصواب لعلي أرشد به في ديني.

ـ ويفهم من هذا أن المريد قد يكون أعلم من الشيخ في علم الشريعة أو في علوم أخرى ، لكنه يحتاج إلى الشيخ ليعلمه من علومه التي توصله لمولاه ، كحال موسى النبي عليه السلام مع الخضر ، إذ لا يتنافى كون موسى عليه السلام وهو نبي ذا شريعة أن يتعلم من غيره من أسرار







العلوم الخفية إذ لا نهاية لعلم الله تعالى ، وفي صحيح البخاري (قال له الخضر : يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه.).

ــ وأكد على ذلك شيخنا فقال في حكمه : طريقنا هذا خضري لا يقبل جدلا ، فعهده (ستجدني إن شاء الله صابراً) ، وشرطه (ولا أعصي لك أمرا) ،وعلمه (أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) ، وحكمته (وما فعلته عن أمري).

كما قال السهروردي في كتابه آداب المريدين : أول ما يلزم المريد ــ بعد الانتباه من غفلته ــ أن يقصد إلى شيخ من أهل زمانه ، مؤتمن على دينه ، معروف بالنصح والأمانة ، عارف بالطريق ، فيسلم نفسه لخدمته ويعتقد ترك مخالفته ويكون الصدق حالته.

كما بينه لنا شيخنا في بعض حكمه فقال (خضر الحقيقة عبد من عبادنا ، ووارث مجمع البحرين شريعة وحقيقة هو عبدنا). ومن لم يكن له شيخ فهو المحروم كما قال الشيخ في الحكم (المحروم من انقضت أيامه ولم يصبر حتى يكشف له خضره








عن لثامه).

ـ لذلك قال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى { صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ } وهذا يدل على أن المريد لا سبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية والمكاشفة إلا إذا اقتدى بشيخ يهديه إلى سواء السبيل ويجنبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل، وذلك لأن النقص غالب على أكثر الخلق، وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب عن الغلط، فلا بدّ من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل ذلك الكامل فحينئذٍ يصل إلى مدارج السعادات ومعارج الكمالات.

وقال بن عجيبة في تفسيرها: الطريق المستقيم التي أمرنا الحق بطلبها هي: طريق الوصول إلى الحضرة، التي هي العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وهو مقام التوحيد الخاص، الذي هو أعلى درجات أهل التوحيد، وليس فوقه إلا مقامُ توحيد الأنبياء والرسل، ولا بد فيه من تربية على يد شيخ كامل عارف بطريق السير، قد سلك المقامات ذوقاً وكشفاً، وحاز مقام الفناء والبقاء، وجمع بين الجذب والسلوك لأن الطريق عويص،








قليلٌ خُطَّارُهُ، كثيرٌ قُطَّاعُه، وشيطانُ هذا الطريق فَقِيهٌ بمقاماته ونوازِله، فلا بد فيه من دليل، وإلا ضلّ سالكها عن سواء السبيل، وإلا هذا المعنى أشار ابن البنا، حيث قال :

وَإِنَّمَا الـقَوْمُ مُسَـافِرُونَ لِحَـضْـرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونَ
فَافْتَقَرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيل ذِي بَصَرٍ بِالسَّيْرِ
وَالْـمَـقِـيلِ قَـدْ سَلَكَ الـطَّـرِيقَ ثُـمَّ عَـادَ لِيُخْبِرَ الْقَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَ.



وقال في لطائف المنن: من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لَقِيطٌ لا أب له، دَعِيٌّ لا نَسَبَ له.



و يقول أيضا ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه: وينبغي لمن عزم على الاسترشاد،وسلوك طريق الرشاد ، أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق ، تارك لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينتهِ عما نهى عنه وزجر.



ويقول الإمام الشعراني بعد أن بين أن من سلك من غير شيخ تاه: "من قال إن طريق القوم يوصَل إليه بالفهم من غير شيخ يسير بالطالب فيها،









لما احتاج مثل حجة الإسلام الإمام الغزالي والشيخ عز الدين بن عبد السلام أَخْذَ أدبهما عن الشيخ، مع أنهما كانا يقولان قبل دخولهما طريق القوم (كل من قال: إن ثم طريقةً للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على الله عز وجل) فلما دخلا طريق القوم كانا يقولان: قد ضيعنا عمرنا في البطالة والحجاب واثبتا طريق القوم ومدحاها " .

وكان سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام يقول بعد ذلك: "ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعي على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله" ثم يتابع الإمام الشعراني قائلا: "فإذا كان هذان الشيخان قد احتاجا إلى الشيخ مع سعة علمهما بالشريعة فغيرهما من أمثالنا من باب أولى.

ـ ثم يبين لنا شيخنا في هذا البيت أن الحكمة من قصة الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام هي أن لا تكون للعبد السالك ثمة إرادة ، فإرادته هي عين إرادة الله ، كما قال سيدي أبا اليزيد البسطامي : أريد أن لا أريدلذلك قال الشيخ في ياقوتة الوصايا :






أنت المراد كذا المريد لوجهنا
فكما نريد تكن بحق عبدنا

لذلك قال بعض العارفين : الرجل الصادق هو من لم تكن له إرادة ، تكون إرادته وتمنيه وشهوته في محبة ربه ، ولا تتقدم له إرادة في شئ أبداً حتى يعلم إرادة الله عز وجل ومحبته فيه . وذلك لأن طريقه الله ومراده الله ، لأن الله هو الحق وكل شئ سواه باطل ، فالله قصده وغايته ومراده { فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال}
ولذلك قال الشيخ:

تبتل للودود وكن مريده
ولا تطلب سواه تنل مزيده
وكن فرداً له بين عبيده
يكن فرداً وأنت به شهيده

كما قال الشيخ في إحدى تسبيحاته :

مرادي ولست أروم غير وداده
ولوجهه وردي وكل شهادتي







٢
وَدُونَ اصْطبارِ السالكينَ لخَضْرِهم
تَعَرَّضَ أَهْلُ الإِعْتراضِ إِلى طَرْدِ

يوضح لنا الشيخ في هذا البيت أدباً عظيماً يتعين على المريد أن يلتزمه أشد الإلتزام ، وهو متابعة الشيخ والوقوف عند أمره ونهيه ، والاصطبار معه على مشاق الطريق والسير. وقد جاء الشيخ بلفظ الاصطبار ليدلل على شيئين .
أولهما أن الصبر مع الشيخ ليس سهلاً ميسوراً ، فعبر بلفظ الاصطبار مبالغة في لزوم الصبر.
وثانيهما أن الصبر مع الشيخ يتطلب المداومة ، ولهذا قالوا دوام المجاهدات تورث المشاهدات.
والمعنى أي اصبر لمشاق صحبة الشيخ وما يصاحب ذلك من شدائد.
قال القشيري رحمه الله: الاصطبار غاية الصبر..
أيها المريد إن مصاحبتك لشيخك تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ولا تعترض على أحواله حتى يأتيك بيانه وإلا تعرضت للطرد من الطريق ، لأن عدم صبرك لشيخك واعتراضك عليه هو من سوء الأدب ، ومن أساء الأدب وهو على البساط رد إلى سياسة الدواب.
كما ينبغي للمريد الصبر على مواقف الشيخ التربوية كجفوته وإعراضه التي يقصد بها تخليص المريد من رعوناته النفسية وأمراضه







القلبية أو لحكمة لا يعرفها المريد . ولبيان ذلك قيل أن بعض أصحاب الإمام الجنيد سأل الإمام مسألة فأجابه الجنيد ، فعارضه في ذلك ! فقال له الجنيد : فإن لم تؤمنةا لي فاعتزلون.

وقال سيدي الشيخ عبد القادر الكيلاني الحسني قدس سره : في كتابه الغنية ص١٦٤ في باب فيما يجب على المبتدئ في هذه الطريقة فالواجب عليه ترك مخالفة شيخه في الظاهر وترك الاعتراض عليه في الباطن فصاحب العصيان بظاهره تارك لأدبه ، وصاحب الاعتراض بسره متعرض لعطبه ، بل عليه أن يكون خصماً على نفسه لشيخه أبداً ويكّف نفسه ويزجرها عن مخالفته ظاهراً وباطناً ,

لذلك وصانا شيخنا في الياقوتة فقال :

اصــبر لــديـه ووده بـودانـا

سلـم إليه وصن عهودك محسنـا

ـ لذلك قالوا : أنه على المريد أن يوافق شيخه أمراً ونهياً كموافقة المريض لطبيبه ، فإن لم يفعل فهو دليل على عدم صدقه ، ومن هنا كان سيدنا أبوبكر رضي الله عنه أسبق الناس إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم



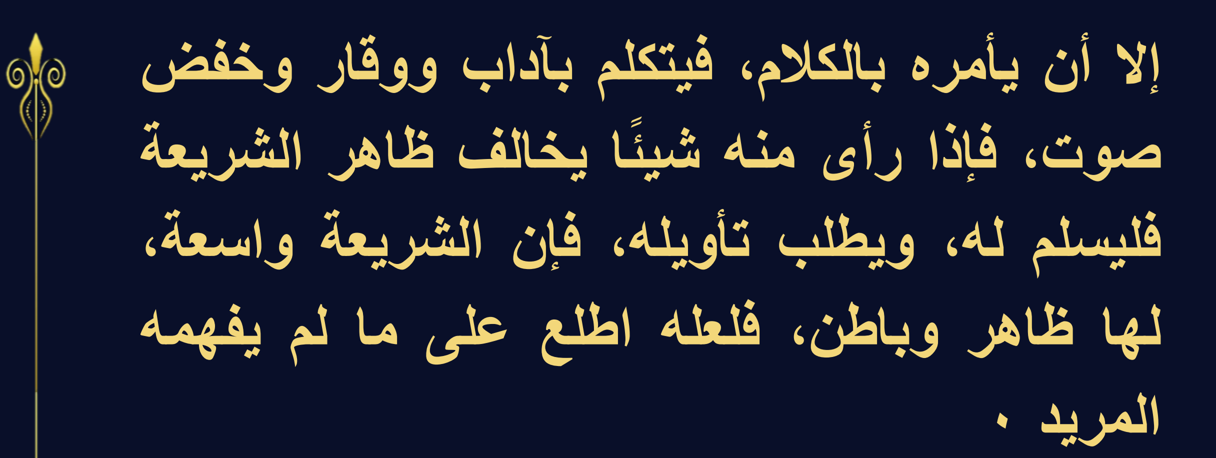





وطاعته.(كتاب ايقاظ الهمم لابن عجيبة).
واعلم أخي أنه على قدر صدقك مع الشيخ وعلى قدر متابعتك له وصبرك معه على قدر ما تكون سرعة سيرك ووصولك لمولاك ، وإلا حتما سيفعل معك الشيخ كما فعل الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام حينما قال له حينما لم يتبع أمره ويصبر معه (هذا فراق بيني وبينك) ، وقد بين الخضر لموسى عليهما السلام حقيقة ما فعل فقال (وما فعلته عن أمري)فعلى التحقيق الفاعل هو الله ، ولذلك قال الشيخ في الحكم (إذا لم تكن أهلاً لشهود عظمة " وما فعلته عن أمري " كنت أهلاً لحلول ظلمة " هذا فراق بيني وبينك ".
وقال بن عجيبة رحمه الله في تفسيره لقصة الخضر مع موسى عليها السلام: الاعتراض على المشايخ موجب للبُعد عنهم، والبُعد عنهم موجب للبُعد عن الله، فلا وصول إلى الله إلا بالوصول إليهم مع التعظيم والاحترام " سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه " كما في الحِكَم. فالواجب على المريد، إذا كان بين يدي الشيخ، السكوت والتسليم والاحترام والتعظيم،







إلا أن يأمره بالكلام، فيتكلم بآداب ووقار وخفض صوت، فإذا رأى منه شيئًا يخالف ظاهر الشريعة فليسلم له، ويطلب تأويله، فإن الشريعة واسعة، لها ظاهر وباطن، فلعله اطلع على ما لم يفهمه المريد .











٣
وَعِنْد فِــرَارِ الـسَـالِكِـينَ لِكَـهْـفِهــم
تُـزَاورُهُم شَـمْـسُ الـحَـقِـيقَـةِ بِالِـرفْـدِ



وسألت شيخي عن ما يقصده بالكهف فقال لي هو الشيخ أو هو الحضرة في مفهومها الواسع ، أي أن السالك عليه أن يفر من نفسه ومن كل الشواغل إلى شيخه أو إلى الحضرة ويلازم ذلك ، وثمرة ذلك تشرق عليه شمس المعرفة الربانية والمواهب القدسية.

وهو كمثل فعل أهل الكهف الذين فروا من عدوهم وانقطعوا عن الشواغل واعتصموا بكهفهم ، فعصمهم الله من عدوهم وأفاض عليهم من لطائف رحمته وأنوار معرفته.

وفي تفسير ابن عجيبة رحمه الله : للصوفية تشبه قوي بأهل الكهف في الانقطاع إلى الله والتجرد عن كل ما سواه والانحياش إلى الله والفرار عن كل ما يشغل عن الله ، والتماس الرحمة الخاصة من الله والتهيئة لكل رشد وصواب.

وهو فعل أصحاب رسول الله ، إذ كانوا ملازمين لسيدنا رسول الله ليلاً ونهاراً ، ولذلك كان شيخي دائماً يرشدني ويعلمني أن ملازمة المريد لشيخه أعظم من الخلوة ، إذ في ملازمته للشيخ عظيم نفع وفائدة ، إذ يكون محل نظره وإرشاده وتربيته وعصمة ونجاة له من الوساوس والزلات ،







وهو ما قد لا يجده في الخلوة ، أذ في الخلوة يكون عرضة للوساوس والأخطار.

ولذلك قال الله لنبيه عن أصحاب الكهف { لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً } ، أي أنهم لما انقطعوا عن الشواغل وفروا لمولاهم ، سطعت عليهم أنوار الحضرة ، وألبسوا ثياب الجلال ، وكذلك شأن كل سالك ومريد ، قد انقطع عن دنياه وهرع لمولاه واستقر في كهف شيخه وحضرته ، فتشرق عليه شموس المعرفة والأنوار ، فيهابه كل من يراه ، ويرتعب كل من يطلع على أحواله ، لما كساهم الله من حلل الجلال والجمال.

وهذه سنة أهل الصلاح والوصال ، وإلى ذلك أشار الله فقال جل جلاله { فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا} وفي تفسيرها قال الإمام أحمد بن عمر: ففي قوله: { فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ } [الكهف: ١٦] إشارة إلى الالتجاء بالحق والتمسك بالمشايخ المكملين يعني بهذه الطريقة { يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ } [الكهف: ١٦] أي: يخصصكم برحمته الخاصة المضافة إلى نفسه وهو أن يجذبهم بجذبات





العناية ويدخلهم في عالم الصفات ليتخلقوا بأخلاقه ويتصفوا بصفاته كقوله تعالى { يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ } (الشورى: ٨)
وله تعالى رحمة عامة مشتركة بين المؤمن والكافر والجن والإنس والحيوان.
{وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً } [الكهف: ١٦]
أي: ييسر لكم طريق الوصول والوصال.

كما قال أيضاً: يشير إلى أن التائب الصادق، والطالب المحق من اعتزل عن قومه وترك أهل صحبته، وقطع عن إخوانه شؤونه واعتقد ألا يعبد إلا الله، ولا يطلب إلا الله، ولا يحب إلا الله، يعرض عما سوى الله، مستعيناً بالله، متوكلاً على الله ، ثم يأوي إلى كهف الخلوة متمسكاً بذيل إرادة شيخ كامل مكمل واصل موصل؛ ليربيه ويزيد في هدايته ويربط على قلبه بقول الولاية وقوة الرعاية.








٤
وَفِـي مَـجْـلِـسِ الأُسْـتَـاذِ قُـدْسُ حَـضَـائِـرٍ
وَكَـوْثَـرُ رَيَّـانِ الـفُـتُـوحِ مَـعَ الـمَـدَدِ



يرشد الشيخ لضرورة ملازمة الشيخ وأهمية الحرص على حضور مجالسه لما فيها من عظيم النفع والفائدة وكونها تمد المريد بالأنوار والفتوح.

وانظر إلى جمال تعبير شيخنا في هذا البيت إذ يقرر بأن مجلس الشيخ وعبر هنا بالألف واللام ليدلل على أن المريد لا يكون له إلا شيخ واحد ، ثم يقرر بأن مجلس شيخك هو قدس حضائر ، فمجالس شيخك مقدسة لما فيها من الحضور والأنوار ، ثم شبهها أيضاً بأنها كوثر وهو الخير العميم ، تشبهاً بحوض الكوثر ، إذ أن شيخك هو من يوصلك للشرب من نهر الكوثر ، ثم يشبهه بالريان إذ لو صمت عن غيره حتماً ستشرب من نهر الريان وتنهل حتماً من فتوحه وأمداده النورانية التي هي من فيض الله العلي الكبير.

وأكد شيخنا على ذلك في بعض حكمه فقال (صحبة عارف راسخ ذو جلوة خير من قضاء العمر كله في خلوة... وأن صحبة ساعة بين يدي عارف بالله خير من الكون وما حوى).

كما شدد على هذا المعنى في الياقوتة







فقال :

في موكب الأستــاذ أسـرع لـوصـلـنـا

واركب سـفـين الـطـالـبـين

لـوجـهـنـا

ــ وفي كتاب جوامع آداب الصوفية للشيخ أبي عبدالرحمن السلمي (إذا بدا لأحدهم بركة من صحبة شيخ من مشايخهم أن يلزمه ولا يفارقه بسبب من الأسباب وعلة من العلل٠٠٠ قال رجل من الحواريين لعيسى ابن مريم عليه السلام وقد توفى والده : أتأذن لي أن أمرَّ وأدفن أبي؟ قال : دع الموتى يدفنون موتاهم واتبعني٠) ٠

ــ وكثيرا ما نجد من بعض المريدين تحدثهم نفوسهم وتضحك عليهم شياطينهم فيتركوا مجلس الشيخ بزعم أنهم يتفرغون للذكر والأوراد وقراءة القرآن في بيوتهم ، فهؤلاء حرموا الخير الكثير وحرموا ما في مجلس شيخهم من الإمداد والأنوار ، ولذلك قال سيدي أبوالعباس المرسي : إذا صحّت نسبتك من شيخك كان تأثيره بالإمداد فيك أكثر من تأثير أذكارك وجميع أعمالك) ٠

وقال بن عجيبة رحمه الله في تفسير قول الله تعالى { الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله }









ولا بد في تحصيل طمأنينة الشهود من صُحبة شيخ عارف طبيبٍ ماهر، يقدح عين البصيرة حتى تنفتح فما حجب الناس عن شهود الحق إلا طمسُ البصيرة فإذا اتصل بشيخ عارفٍ كحل عين بصيرته أولاً بإثمد علم اليقين، فيدرك شعاع نور الحق قريباً منه، ثم يكحل عينه ثانياً بإثمد عين اليقين، فيدرك عدمه لوجود الحق، أي: يغيب عن حسه بشهود معناه القائم به. ثم يكحل عينه بإثمد حق اليقين، فيدرك وجود الحق ـ بلا واسطة قدرة وحكمة، معنى وحساً، لا يتحجب بأحدهما عن الآخر.













٥
وَرَاقِبْــهُ بالأنْفَــاسِ وَاحْـفَـظْ لِــســرِهِ
وَخَــلِ كُـؤوسَـكَ مِـنْ غُـرُورِكَ وَالـعَـدِّ



وفي هذا البيت يشدد الشيخ على ضرورة التزام المريد الأدب مع الشيخ فيرقبه ويحفظ سره ولا تسول له نفسه فيظن أنه أفضل من شيخه وأعلم منه ، فإن ذلك من الغرور المهلك.

كما قال شيخنا في الياقوتة:

وصن سره في كل حال موقناً
فالستر حال السالكين طريقنا
كن حافظ الأسرار ووفي عهودنا
صن سره ستراً عليه بسرنا

بل قال الشيخ عبدالقادر الجيلاتي بأن أعز أدب المريد مع الشيخ هو أن لا يتمنى منزلة فوق منزلة شيخه وأن يحب لشيخه كل منزلة عالية وكل عزيز المنح والمواهب فذلك هو أدب الارادة وهو عزيز بين المريدين قال السري رحمه الله: "الأدب ترجمان العقل.

وكان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه يقول: عليك ايها المريد بالعكوف على اعتاب شيخك فانك لو علمت ما انطوت عليه الاشياخ ما برحت عن أبوابهم ولأتيتهم سعيا على الوجه.

وقال سيدى أبو العباس المرسى: ولقد كنت ساكنا فى مصر وكنت أحضر مجلس الشيخ أبى الحسن






فى الإسكندرية كل يوم وأرجع الى مصر وكانوا يقرأون عليه كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذى رحمه الله تعالى.

وقال ايضا لا تطلبوا الشيخ بان تكونوا فى خاطره بل طالبوا أنفسكم ان يكون الشيخ فى خاطركم ولذلك قال بعضهم فى آداب المريد مع شيخه.



اخلص ودادك صدقا فى محبته
والزم ثرى بابه واعكف بناديه



واستغرق العمر فى آداب صحبته
وَحَصِّلِ الدرَّ والياقوت من فيه





وابذل قواك وبادر فى أوامره
الى الوفاق وبالغ فى مراضيه
واحذر بجهدك ان تأتى ولو خطا
مالا يحب وباعد من نواهيه

قال القطب العارف بالله تعالى سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه: كان والدى عبد الرحمن يقول المريد الصادق اذا غاب عنه شخص شيخه تكاد تطلع منه روحه واذا تخلف فى بيته عن الخروجد يرى ذلك من شقاوته ثم لا يزال عاكفا على عتبة باب شيخه مترقبا









خروجه والمريد الكاذب بالعكس يفرح لغيبة شيخه خوفا ان يلقاه فيأمره وينهاه عن مخالفة هواه فغذاء المريد الصادق رؤية شيخه وغذاء المريد الكاذب غيبة شيخه عنه فاعلم ذلك وكان يقول لاتقس حالك فى أنواعِ العبادات الظاهرة على حال شيخك فان شيخك وان قلت أعماله الظاهرة فهو عمال بباطنه وكل يوم من أيام الاستاذ عند ربك كألف سنة مما يعد المريدون عند ربهم ٠٠٠وقال أيضاً :إياك أيها المريد الصادق ان تقف مع ظاهر شيخك بل اخرق الى شهود قلبه وانظر ما هو فيه فمن نظر الى ظاهر جسم شيخه لم يبتهج به بل لم تزده تلك الروية الا غفلة واستغراقا فى سوء الظن وبسائر الاشياخ وقلة الادب معه ومعهم وما ذاك الا انه حجب برؤية الاحباب وربما قال اى فرق بينى وبين شيخى فيتلف بالكلية٠

وفي قصيدة سيدي أبي مدين الغوث:

وراقب الشيخ في أحواله فعسى

يرى عليك من استحسانه أثرا

وإياك يأخذك الغرور وتظن نفسك أفضل من شيخك ،







أو تأتيه وأنت تتشح بثوب الولاية والعلم ، إذ من الأدب أن يرى المريد كلّ فضل أصابه من الله تعالى وكلّ خير ناله فإنّه حصل له ببركة شيخه، فإنّ كلّ مريد نوره مستمدّ من نور شيخه، وجميع ما يراه المريد من المدد فهو من فيض شيخه، فآنذاك لن تأخذ منه شيئاً ، فكيف يفاض المدد والعلم والنورعلى كأس مملوء ، ولذلك قيل لأبي منصورالمغربي: كم صحبت أبا عثمان؟ قال: خدمته لا صحبته فالصحبة مع الإخوان والأقران، ومع المشايخ الخدمة.

كما قيل: أنه يجب عليك أن تحفظ سره وإياك أن تفشي له سراً،بمعنى أنّه يجب على المريد صون سرّ شيخه عن كلّ شخص مطلقا، سواء كان ذلك السّرّ من الأمورالعاديّة أو غيرها، لأنّ الكلام ما دام في الصّدر فهو سرّ، لأنّ صدور الأحرار قبور الأسرار.

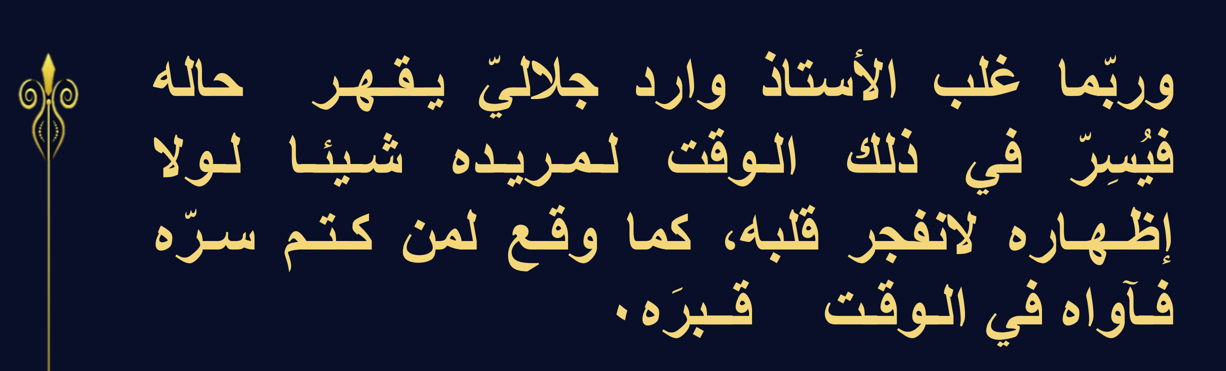
وٱعلم، أنّ الأستاذ قد يبلّغ إلى مريده على وجه الإسرار أموراً كلّية، لأنّ المريد عندهم بمنزلة النّسخة للأستاذ، فيحبّ أستاذه أن يرسم فيه جميع أشكاله الظاهرة والباطنة،











وربّما غلب الأستاذ وارد جلاليّ يقـهر حاله فيُسِرّ في ذلك الوقت لـمريده شيئا لـولا إظـهاره لانفجر قلبه، كما وقـعِ لمن كـتـم سرّه فـآواه في الـوقـت قــبرَه.







٦
وما لَمْ تَكُنْ تُغْـنِيكَ نَظْرَةُ ودِنَـا
فَلَنْ يُنْقِـذَ الغَـرْقَى الـنِـدَاءُ بِـلا يَدِّ

وينبه شيخنا مجدداً على ضرورة متابعة الشيخ والتأدب معه وملازمة صحبته واليقين في حتمية الوصول على يديه ، والإكتفاء به فلا يتركه ويذهب لشيخ غيره ، إذ لابه أن يكون له شيخ واحد ، وإلا كنت كالغريق يشرف على الغرق والهلاك وينادي ويستغيث دون وجود يد تتجده وتأخذ بيده ، ولذلك قال الشيخ في بعض حكمه : يا ولدي قف على باب واحد وإن طال بك الأمد ، حتماً ستدخل ، فمن طرق كل الأبواب تحير من أي باب يدخل ، وربما لا يدخل.
فإن وفقك الله ووجدته فانهض إليه ولازمه لينهض بك إلى مولاك ، واطرح نفسك بين يديه ، وكن بين يديه كالميت بين يدي المغسل يقلبه كيف يشاء ، فكذلك الشيخ يقلبك بين أحكام الشريعة وآداب الطريقة لتكون بين يدي ربك طاهراً ، وقلبك نقياً مصقولاً صالحاً لتتجلى عليه أنوار الحق ، إذ الشيخ هو الذي يحدد لك طريق الوصول إلى الله وكيفية السير إليه في طريقٍ ملئ بالأعداء المتربصين من شيطان مريد ونفسٍ أمارة بالسوء ، وهوى نفس وتسلط بعض الخلق وغير ذلك.
ولذلك قال شيخنا في الحكم :









من دله الله على شيخ التربية وتردد ، كان كمن وقف على البحر يشكوا العطش وينادي المدد.

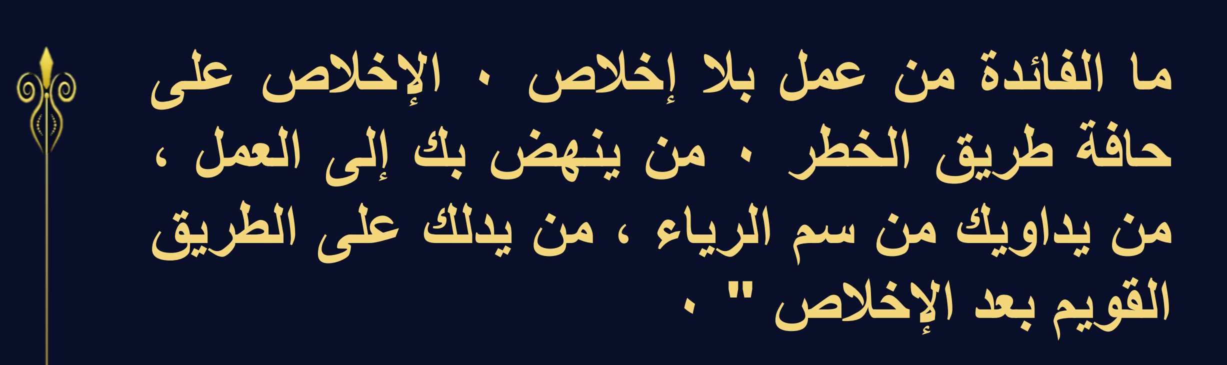
والشيخ المربي هو رجل سلك الطريق قبلك وعلم عقباته ومطباته ، فهو بمثابة الدليل الذي يدلك على الله وينور طريقك ويفتح بصيرتك لتعرف كيف تصل لغايتك ومستراحك في الحضرة القدوسية ، فتصحب شيخاً ليعلمك كيف تحب الله وكيف تتأدب معه .

قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله في كتابه مجموع الفتاوى : " لا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن ، كما تلقى الصحابة ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقاه عنهم التابعون ، وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان ، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه فكذلك له من يعلمه الدين الظاهر والباطن ".

ـــ ويوضح لنا سيدي أحمد الرفاعي في كتابه البرهان المؤيد وظيفة الشيخ وأهميته فيقول : " صحبتنا ترياق مجرب ، البعد عنا سم قاتل . أي محبوبي : تزعم أنك اكتفيت عنا بعلمك . ما الفائدة من علم بلا عمل ،





ما الفائدة من عمل بلا إخلاص . الإخلاص على حافة طريق الخطر . من ينهض بك إلى العمل ، من يداويك من سم الرياء ، من يدلك على الطريق القويم بعد الإخلاص " .








٧
وَخَـرْقُ سَـفِـينِ الـنـاسِـكِينَ أمـانُـهــا
وَفِـي الـسَـتْـرِ تَـاجٌ لـلـكَـرَامَـةِ والـرفْـد

يرشدنا الشيخ في هذا البيت إلى أهمية مجاهدة النفس وكبح جماحها ، فيخرق عنها عوائدها التي تحول دون وصول النور والفتح إلى قلبه من الشهوات والحجب التي تحجب المريد عن مولاه ، ولذلك نجد في الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري : كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد .

فأمان المريد ونجاته في خرق عوائد نفسه ، أما ترى الخضر عليه السلام لما خرق السفينة المملوكة لمساكين يعملون في البحر ليعيبها ، فنجت السفينة بذلك من غصبها وسرقتها .

ولذلك يقول ابن عجيبه رحمه الله في تفسيره :ـ يؤخذ من خرق السفينة أن المريد لا تفيض عليه العلوم اللدنية والأسرار الربانية حتى يخرق عوائد نفسه ، ويعيب سفينة وجوده ، بتخريب ظاهره حتى لا يقبله أحد ولا يقبل عليه أحد ، فبذلك يخلوا قلبه ويستقيم على ذكر ربه ، وأما ما دام ظاهره متزيناً بلباس العوائد فلا يطمع في ورود المواهب والفوائد .

ـ وذللك لأن المريد المحب للشهوات الذي هو أسير نفسه وهواه فلا يجئ منه شئ ،








لأن المريد الشهواني أبداً يركن إلى الفاني ، والراكن إلى الفاني أبداً لا يصل إلى الباقي ، ولذلك قيل أن الله أوحى إلى داوود عليه السلام وقال له : حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عني محجوبة.
كما يوضح لنا الشيخ في هذا البيت أنه يجب على المريد أن يستر أحواله ولا يظهرها ، لأنه في الستر كما قال الشيخ تاج للكرامة والرفد ، لأن الستر في طريق القوم واجب ، ولذلك يقول الله حكاية عن أصحاب الكهف { إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً} ، وفيها يقول ابن عجيبة في تفسيره : إن أطلع الله مريديه على سره المكنون من أسرار ذاته بالغوا في إخفائه حتى لا يشعروا به أحداً من خلقه غير من هو أهل له ، لأنهم إن أظهروه لغيرهم رجموهم أو أعادوهم إلى ملتهم ، بأن يقهروهم إلى الرجوع عن طريق القوم ، ولن يفلحوا إذاً أبدا.
وأكد شيخنا على ذلك في بعض حكمه فقال : يا ولدي إن الخلق إن اطلعوا على خصوصيتك فتنوك ، وإن حنت لهم بشريتك صدوك








{ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً}.

لذا يقال : من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار.

وقال الشيخ الشعراني : (إن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس، إلاَّ إن كانت لنصرة دين، أو جلب مصلحة، لأنَّ الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم).

وقال سيدي علي الخواص: إذا وقع على يد الكامل من الكرامات المحسوسة خاف وضج إلى الله تعالى ، وسأل الله ستره بالعوائد ، وأن لا يتميز على العامة بأمر يشار إليه فيه ،ما عدا العلم ، فإن العلم هو المطلوب وبه تقع المنفعة ولو لم يعمل به أحد{ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون}.









٨
وَمَا لَمْ تُرِدْ زَهْــوَ الكَرَامَــةِ يَا فَتَى
سَتُنْصَــرُ حَتْمَــاً بِالتَأيِيد وَلَا بُــدِ



وهذا البيت كسابقه يحذرنا شيخنا فيه من آفة خطيرة تصيب السالك في الطريق وهي انشغاله بالكرامة وزهوها ، فالمريد الصادق إنما يسعى للإستقامة ويفر من ظهور الكرامة ، حتى لا يفتتن بها ، وحتى لا يشغله زهوها عن ربه ، وقد أكد على هذا المعنى شيخنا من قبل في بعض حكمه فقال : من تلفت لزهو أحواله فهو مخدوع ، ومن شغلته الكرامة عن الاستقامة فهو مقطوع.

ـ بل إن من آداب الأولياء إذا ظهرت عليهم بعض الكرامات فإنهم يكتمونها وينظرون إليها بعين الاستدراج ، وفي ذلك قال سيدي أبا علي الروذباري: كما فرض الله تعالى على الأنبياء إظهار الآيات والمعجزات ، كذلك فرض على الأولياء كتمانها لئلا يفتن بها الخلق. بل إن بعضهم قال : ألطف ما يخدع به الأولياء الكرامات وإظهار الآيات عليهم.

لذلك وصف شيخنا في كتابه كنوز الإشارات حال العارف مع الكرامة فقال: العارف حاله عند الكرامة الحياء ، والعراف حاله مع الكرامة الكبر والعلاء ، العارف فانٍ عن شهود أفعاله ، والعراف مفتون بأفعاله وأقواله.









ــ والعبد المؤمن المستقيم لا يسعى إلى الكرامة ولا يطلبها ، ولذلك قال أبو علي الجرجاني : كن طالب الإستقامة لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة والله يطلب منك الإستقامة ، فالكرامة الكبرى هي الإستقامة في خدمة الخالق بإظهار الخوارق.

ولذلك لما قيل للشيخ أبي سعيد : إن فلانا يمشي على الماء قال : إن السمك والضفدع كذلك ، فقيل له :إن فلاناً يطير في الهواء فقال : إن الطيور كذلك ، فقيل له : فلاناً يصل إلى الشرق والغرب في آن واح ، قال : إن إبليس كذلك ، فقيل له : فما الكمال عندك ؟ قال : أن تكون في الظاهر مع الخلق وفي الباطن مع الحق.

ولذلك نبهنا شيخنا إلى عدم التلفت للكرامات التي يظهرها الله على يديك لئلا تفتتن بها ولئلا يفتن بها غيرك ولئلا تشغلك عن الاستقامة في طريق الحق ، وقد تظن أنها من فيض عملك وطاعتك ، ولذلك قال شيخنا في بعض حكمه : كفى بالمرء جهلاً أن تجرى الكرامة على يديه ، فتحجبه عن من بسط المواهب عليه.

كما قال شيخنا في الياقوتة:





من تـاه بـالـكـرامـات ضـل طـريـقـنـا
ومـن اعـتـلاه الـزهـو لـيـس مـريـدنـا

وعدد شيخنا في كتابه كنوز الإشارات صور العجب ، ومن بعض ما قاله: وأوسطها (أي العجب) التلفت لمواهب الأحوال والكرامات ، وذلك من العجب الجلي ، لأن حال الولي مع الأحوال الستر ، وحاله مع الكرامة الحياء ، فما لم يتأدب مع لك رده عجبه إلى التعامي بالكرامة عن المكرم ، والاحتجاب بالأحوال عن بلوغ مقام الكمال.










٩

وَصُحْبَـةُ أهْـلِ اللـهِ بَـحْـرُ كَـرَائِـمٍ

وَوَارِدُ يَـمِّ الـعَـارفِـينَ ففـي سَـعْـدِ

من دعائم الطريق أن تصحب ألصالحين وأهل الله في سيرك لمولاك ، لأنك عند رؤياهم تذكر الله ، وينهضك حاله ، ويرفع ما بينك وبين ربك من الحجب ويقول لك ها أنت وربك .

وما نال الصحابة ما نالوا من الشرف والسؤدد إلا بمصاحبتهم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ذلك إلا لأن رسول الله كان يطيب قلوبهم ويزكي نفوسهم بحاله { هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة} ، ثم إن التابعين ما نالوا أيضاً ما نالوه من شرفٍ إلا باجتماعهم بأصحاب رسول الله واجتماعهم بهم ، وهو ما ندبنا إليه مولانا فقال{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين } ، {واتبع سبيل من أناب إلي}،

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله أي جلسائنا خير؟ قال: (من ذكركم بالله رؤيته ، وزاد في علمكم منطقه ، وذكركم في الآخرة عمله) .

واصحب رجال الله يا عبد الله وإن لم تعمل بعملهم ، فقد سأل أبا ذرٍ رضي الله عنه رسول الله وقال له الرجل يحب القومٍ ولا يستطيع أن يعمل عملهم؟









فقال رسول الله : (أنت يا أبا ذر مع من أحببت)٠
لذلك قال شيخنا في الياقوتة :

واصحب رجال الله تصبح آمناً
فهم الأمان وهم مصابيح الدنا
فهم الغياث وهم معادن وصلنا
أكرم بقوم أرادوا وجهنا
من جاءهم يرجوا الرشاد بنورنا
سطعت له أنوار قدس كمالنا

ولذلك قال رسولنا الكريم (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) ٠
فيا سعادة من وفقه الله لصحبة هؤلاء ، ولذلك قال سيدي أبو القاسم الجنيدي(من أراد الله به خيراً أوقعه في صحبة الصوفية) ،وذلك لأن صحبة أهل الله ما هي إلا دليل على محبة الله ، لأنه كما قال ابن عجيبة : محبة من يوصل إلى الله ما هي إلا محبة الله ، والنظر إلى العارف بالله فإنما هو النظر إلى الله ، إذ لم يبق فيه بقية لغير الله ، فصار نوراً مهيأً من نور الله ٠
وأكد على ذلك شيخنا في بعض حكمه فقال : قلة الأنام إلا عن صحبة عارف راسخ القدم ، أو سالك صادق ذو همم ، وكل ما دون ذلك عدم٠










وانظر قول الله تعالى لنبيه : { وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم } . وعنها قال ذو النون رحمه الله: أمر الله تعالى الأغنياء بمجالسة الفقراء والصبر معهم والاستنان بسنتهم. قال الله تعالى:{ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ }.

قال عمرو المكى: صحبة الصالحين والفقراء الصادقين عين أهل الجنة يتقلب من الرضا إلى اليقين ومن اليقين إلى الرضا .

وما أحسن قول أحدهم لرجل: دع عنك هذا ، من جاع جوع القوم وسهر سهرهم رأى ما رأوا.









١٠
وصــحبَــةُ أهــلِ اللـغْــــوِ تُــهْلِكُ يَا فَــتى
كَـمـنْ عَـاشَ فَـرْدَاً بِـالـقُـبُـورِ بِـلاَ وَفْـدِ



وهذا البيت مرتبط بسابقه ، إذ مما يعين المريد على مشاق الطريق أن يصحب من ينهضه حاله ويبتعد عن مصاحبة الغافلين وأهل اللغو ، وشبه شيخنا هنا من صاحب أهل اللغو والغفلة بمن عاش بين القبور فرداً بلا زائر ولا وافد ،وقد عبر شيخنا عن ذلك في الياقوتة فقال :

واتـرك سـبيـل الغـافـلين ونـاجـنـا
وعن الآنام فـكـن غنياً مـحـسـنـاً

كما قال في بعض حكمه : إن جاورت الغافلين غفلت ، وإن صاحبتهم وأنت طائع بطاعتك اغتررت.

وبذلك حـثـنـا سيدنـا النبي صلى الله عليه وسلم فقال (لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي).

والله وصف أهل النجاة والإيمان بقوله { والذين هم عن اللغو معرضون } ، ذلك أن هؤلاء المؤمنون لما طالعوا الحق أخذهم عنهم وسلبهم منهم قد شغلهم عن الأغيار ، وآواهم بعيداً عن اللغو ومن باب أولى أهل اللغو إلى صحبة العارفين وأهل الإيمان.

واللغو هو كل فعل لا لله وكل قول لا من الله ورؤية








غير الله وكل ما يشغلك عن الله فهو لغو.
وقيل اللغو هو المعاصي وقيل هو الباطل وقيل هو الغناء، وقيل هو كل ما سوى الله ،ولذلك روى مالك عن محمد بن المنكدر أنه قال: يقول الله جلّ ذكره يوم القيامة أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللغو ومزامير الشيطان، أدخلوهم في رياض المسك، ثم يقول للملائكة: أسمعوهم حمدي وثنائي علي وأخبروهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.
بل إن علماؤنا حذرونا حتى من مجالسة أهل الهوى ، فقال الحسن البصري رحمه الله : لا تجالسوا أصحاب الهوى ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم.
لأن مجالسة هؤلاء ــ كما قال إبراهيم النخعي ــ تُذهِب بنور الإيمان من القلوب ، وتسلب محاسن الوجوه ، وتورث البغض في قلوب المؤمنين.
كما قال أبوقلابة رحمه الله: لا تجالسوا أصحاب الأهواء ولا تجادلوهم ، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون.
بل إن ابن عجيبة رحمه الله قال بأن الهجرة من أوطان الغفلة واجبة، ومفارقة الأصحاب والعشائر









الذين لا يوافقون العبد على النهوض إلى الله فريضة، فيجب على المريد أن يهاجر من البلد التي لا يجد فيها قلبه، ولا يجد فيها من يتعاون به على ربه، كائنة ما كانت، وما رأينا ولياً قط أنتج في بلده، إلا القليل، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم من وطنه إلى المدينة. وحينئذ نصر الدين، بقيت سنة في الأولياء، لا تجد ولياً يعمر سوقُه إلا في غير بلده، ويجب عليه أيضاً أن يعتزل من يشغله عن الآباء والأبناء والأزواج والعشائر، وكذلك الأموال والتجارات التي تشغل قلبه عن الله.




وليس ذلك دعوة إلى التواكل وترك العمل ، ولكنها دعوة بأن تجعل الدنيا في يدك لا في قلبك ، وأن لا تشغلنك عما خلقت من أجله ، فافهم.









١١
وَمَـنْ ضَـيَّـعَ الأَوْقَـاتَ بالـلغْـوِ لاهـيـاً
كَـمَـنْ هَـدَرَ الـدُرَّ الـنَـظـيـمَ مِـن العُـقـدِ



يرشدنا شيخنا إلى أهمية الوقت ، وإلى أن الصوفي الحق والمؤمن الصادق هو الذي يحرص على وقته فلا يضيعه ولا يمضيه فيما لا نفع فيه ، وشبه شيخنا من ضيع وقته كمن أتلف عقدا منظوماً فانفلتت منه الدرر. وها هو الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: استفدت من الصوفية كلمتين قولهم؛الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

ـ وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال : ـ (يا أبا ذر ، إياك والتسويف بعملك فإنك بيومك ولست بما بعده ، فإن يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم ، وإن لم يكن غد لك فلا تندم على ما فرطت في اليوم . يا أبا ذر كم مستقبل يوماً لا يستكمله ، ومنتظر غداً لا يبلغه . يا أبا ذر لو نظرت إلى الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره) .

ولحرص السلف على أوقاتهم واستثمارها فيما يفيد ، كان أبو مسلم الخولاني رحمه الله يقول : لو رأيت الجنة عياناً ما كان عندي مستزاد ، ولو رأيت النار عياناً ما كان عندي مستزاد.

ولذلك فلا تكن كأحدهم كان إذا سقط منه درهماً













لظل يومه يقول : إنا لله ذهب درهمي ، وهو يذهب عمره ولا يقول ذهب عمري .
والوقت عند العابد هو وقت العبادة والأوراد وعند المريد هو وقت الإقبال على الله والجمعية عليه والعكوف عليه بالقلب كله ، والوقت هو أعز شيء يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك ، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه كما في المسند مرفوعا من أفطر يوما من رمضان متعمدا من غير عذر لم يقضه عنه صيام الدهر وإن صامه .



وعن ابن مسعود قال: (ما ندمتُ على شيءٍ ندمي على يومٍ غَرَبَت فيه شمسُهُ نقص من أجلي ولم يزدَدْ فيهً عملي)
وقال الإمام الجنيد : قال لرجل وهو يَعِظهُ: (جِماعُ الخير في ثلاثةِ أشياء: إن لم تُمضي نهاركَ بما هو لكَ فلَا تُمضِهِ بما هُو عليك، وإن لم تصحبِ الأخيارَ فلا تصحبِ الأشرار، وإن لم تُنفقَ مالك في ما للهِ فيه رضا فلا تنفقهُ في ما لله فيه سخط)
<u>كما قال شيخنا فى الياقوتة:</u>



فالوقت كنز زاخر من فيضنا
فاغنم جواهره بذكرٍ يرضنا







فالعمر إما ساعة بوصالنا
أو ينقضي حتماً وتحرم وصلنا

وعن الحسن البصريِّ رحمه اللهُ- قال: أدركتُ أقواماً كانوا على أوقاتِهم أشدَّ منكم حرصاً على دراهمِكم ودنانيرِكم .ومن كلام السّلف المأثور، وأقوالهم السّائرة: مِن علامةِ المَقْتِ: إضاعةُ الوقت.كما نبهنا على ذلك سيدنا رسول صلى الله عليه وسلم فقال:(لا تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتَّى يسأل عن أربع ، عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن علمه ما عمل فيه ، وعن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه). رواه أبو برزة الأسلمي وأخرجه الترمذي.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه:كل مجلس لا يذكر فيه العبد ربه تعالى ، كان عليه حسرة وترة يوم القيامة.

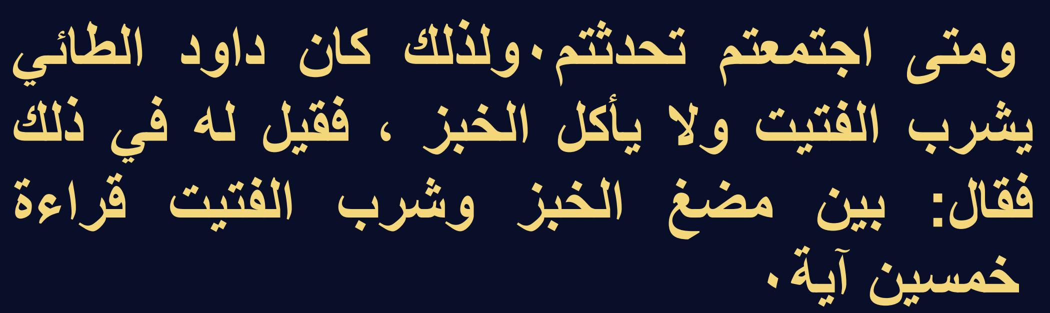
لذلك كان السلف حريصين على أوقاتهم وينصحون ذويهم بذلك ، وكان بعضهم يوصي أصحابه قائلاً: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا ، لعل أحدكم يقرأ القرآن ،











ومتى اجتمعتم تحدثتم.ولذلك كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز ، فقيل له في ذلك فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

ـوقال الوزير بن هبيرة:

والوقت أنفس ما عُنيت بـحـفـظـه

وأراه أسـهـل مـا عـلـيـك يـضـيـع

كما قال بن الجوزي: يا من أنفاسه محـفوظـة ، وأعماله ملحوظة، أَيُنْفَقُ العمر النفيس في نيل الهوى الخسيس.

فانظر أخي كيف كان حرص أسلافنا على وقتهم ، حتى أن محمد بن ثابت الكتاني رحمه الله قال : ذهبت ألقن أبي وهو في الموت لا إله إلا الله ، فقال لي: يا بني دعني فإني في وردي السادس أو السابع.








١٢
وصِدْقُ العَزَائـمِ والمَـسِيرُ على هُدَى
وَإَيـثَـارُ مَـنْ تَهـوَى عَلى النَفْسِ والنِّدِ



ثم إنه يجب على المريد أن يتسلح بسلاح العزيمة الصادقة والجد والاجتهاد في سيره وسلوكه وأن يكون هواه تبعاً لما جاء به النبي الكريم ،والسير على منهاج النبوة.وقد قال لي شيخي يا ولدي لا تكفي أن تكون لديك همة وعزيمة للسير في طريق مولاك ، ولكنها يجب أن تكون همة صادقة ولذلك قال القائل:

هنيئاً لأهل الدير كم سكروا بها
وما شربوا منها لكنهم همّوا

فهؤلاء مع ضلالهم همَّوا وعزموا وأنفقوا الأموال لنصرة ضلالاتهم لكنهم ضلوا وما وصلوا ، إذ يجب أن تقصد بعبادتك وجه الله وأن لا تمنَّ بعبادتك وعزيمتك على الله ، لذلك يأتيني بعض المريدين وأعطيه ورداً فيداوم عليه أياماً ثم يأتيني ويشكوا لي بأنه لم يرى ثمة رؤيا... ماذا يريد هذا المريد أن يرى؟ أتمن بذكرك ووردك على مولاك! يا ولدي ما كنت لتذكره لولا توفيقه ، أما سمعت مولاك يقول { وما يذكرون إلا أن يشاء الله} .. فهذا لم يكن مخلصاً حينما ذكر الله ،فالذكر والاجتهاد مطلوب لكن شريطة أن تقصد به وجه الله ولا تمن به عليه وأن يكون صواباً









على منهاج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال سيدي أبو مدين : قوة العارف بمعروفه وهمم العارفين لا تسموا لغير معروفهم ، كما أن همم العارفين لم تزل عاكفة على مولاها.
ولذلك نبه على ذلك شيخنا في بعض حكمه فقال: من لم يتخذ سبيل العزم في بحر الطريق سرباً ، ويطلق شراعِ التسليم نصباً،هيهات أن يرى من خضر الحقيقة عجباً .
والعزيمة هي الجد والاجتهاد ، وقال بن رجب رحمه الله: العزيمة هي القصد الجازم المتصل بالفعل.
وقال بن القيم: ليس للعبد أنفع من صدقه ربه في جميع أموره ، فيصدق في عزمه وفي فعله ، قال تعالى{ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم} فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل ، فإذا صدقت عزيمته بقى عليه صدق العمل ، وهو استفراغِ الوسع وبذل الجهد وأن لا يتخلف عنه بشئ من ظاهره وباطنه.
واعلم أخي أنه لا قدرة للعبد على ذلك إلا به ، وهو نوعان: أحدهما: عزم المريد على الدخول في الطريق وهو البداية ،










وبه يحصل له الدخول في دائرة الأنوار والخير والبعد عن كل شر ، والثاني :العزم على الإستمرار وعلى الإنتقال من حال إلى حال أكمل منه وهو النهاية.

ومن صدق في عزمه يئس منه الشيطان ، ومن تردد طمع فيه الشيطان وسوفه ومنَّاه.

والنفس قد تسخوا بالعزم في الحال ، إذ لا مشقة في الوعد والعزم ، والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكين وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ، ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا مضاد للصدق فيه ، ومثاله في كتاب الله كثير ، منها قوله تعالى في سورة التوبة { ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون } وقوله في سورة الأحزاب { من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا}.



وقد سئل بعض السلف : متى ترتحل الدنيا من القلب؟ قال: إذا وقعت العزيمة ترتحل الدنيا من القلب ودرج القلب في ملكوت السماء ،









وإذا لم تقع العزيمة اضطرب القلب ورجع إلى الدنيا.

ـ كذلك بين شيخنا أنه لابد أن تؤثر الله ورسوله على نفسك وهواك ، وقد قال وهيب بن الورد: بلغنا والله أعلم أن موسي عليه السلام قال يارب أوصني قال أوصيك بي قالها ثلاثًا حتى قال في الأخري أوصيك بي أن لا يعرض لك أمر إلا آثرت فيه محبتي على ما سواها فمن لم يفعل ذلك لم أزكه ولم أرحمه .

ومن علامة المحبة والإيثار سرعة الإستجابة لله ورسوله ،ودلنا على ذلك قول ربنا { فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم }.

ولذلك أحسن من قال:

إن هــــواك الـذي بـقـلـبي
صـيرني سـامعًا مطيعًـا

أخذت قلبي وغمض عيني
سلبتـني النوم والـهجوعًا

فـذر فــؤادي وخـذ رقـادي
فقال لا بـل هـما جـميعًـا

وانظر بلاغة ما قاله الشيخ حينما جمع بين صدق العزم وإيثار الله ورسوله ،






لأنه لن يتأتى لك الصدق في العزم ما لم يتمكن حب الله ورسوله في قلبك وإيثارهما على نفسك وعلى ما سواهما ، لأنك إن أحببته علمت أنه هو ولا شئ معه ، وأنه مالك كل شئ ، وأنه ليس لك من الأمر شئ ، فتسلم كلك له ، وتؤثره على نفسك وهواك.

وقال بن القيم:أن العبد ليس له شيء أصلا والعبد لا يملك حقيقة . إنما المالك بالحقيقة سيده . فالأثرة والإيثار والاستئثار كلها لله ومنه وإليه . سواء اختار العبد ذلك وعلمه ، أو جهله ، أم لم يختره . فالأثرة واقعة . كره العبد أم رضي . فإنها استئثار المالك الحق بملكه تعالى.

وهو فعل الصابة مع سيدنا رسول الله منها ما روي عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ -رضي الله عَنْهُ- أَنَّ رَجُلا أَتَى النَّبِي -صلى الله عليه وسلم- فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ، فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ؟ صلى الله عليه وسلم» :-مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا «فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ: أَكْرِمِى ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِى، فَقَالَ هَيِّئِى طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِى سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِى صِبْيَانَكِ






إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ فَجَعَلا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلانِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ : ضَحِكَ الله اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا

فَأَنْزَلَ الله تعالي :

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: ٩].







١٣
وَفِي البِرِ سِرِ السِرِ وَالجُودِ رِفْعَةً
وَبِالبُخْلِ تَقْطَعُ مَا يَفِيضُ مِنَ المَدِ

وهنا يدعوا شيخنا إلى البر والجود ونبذ البخل لأن البخل خلق ذميم ، لذا أقسم ربنا في حديثه القدسي فقال (وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل) ، وأن نتخلق بأخلاق نبينا الكريم إذ كان صلى الله عليه وسلم أجود من الريح المرسلة ، وكن كنبيك محمد في الجود والإنفاق ، إذ وصفه بعض أصحابه فقال (جئتكم من عند رجل يعطي عطاء من لا يخشى الفقر) ، ولذلك قال شيخنا في الياقوتة :

إن رُمْتَ إحسـاناً وواسـع بـرنـا
أنـفـق من المحبوب واقصد وجهـنـا
من شاهد الأنوار يعطي مـوقـنـاً
مـثـل الـريــاح ولا يـمـيـل إلى الـدنـا
إن زالت الأستار يـعطي عبدنـا
بـيـد الــسـخــاء وجـوده من جـودنـا

ولذلك قال مولانا في مـحكم كتابه { لن تنالوا الـبر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شئ فإن الله به عليم} وفيها قال بن عجيبة رحمه الله : ليس للفقير شيء أحبُّ من نفسه التي بين جنبيه، بل عند جميع الناس، فمن بذل روحه في مرضاة الله نـال رضوان الله ومعرفته، وهو غاية البر،









فمن أذل نفسه لله أعزه الله، ومن أفقر نفسه لله أغناه الله، من تواضع لله رفعه، فبذل النفس لله هو تقديمها لشيخ التربية يفعل بها ما يشاء، فكل ما يشير به إليه بادر إليه بلا تردد، فمن فعل ذلك فقد نال غاية البر، وأنفق غاية ما يُحب، وكل من بذل نفسه بذل غيرها بالأحرى، إذ ليس أعز منها .

ويقال اذا كنت لا تصل الى البر الا بانفاق محبوبك فمتى تصل الى البار وانت تؤثر عليه حظوظك.

قال القشيرى: من اراد البر فلينفق بعض ما يحبه ومن اراد البار تعالى فلينفق جميع ما يحبه.

وقال نجم الدين الكبرى فى قوله تعالى { فان الله به عليم } فبقدر ما تكونون له يكون لكم كما قال من كان لله كان الله له فان الفراش ما نال من بر الشمع وهو شعلته حتى انفق مما احبه وهو نفسه




وقال القاشانى: كل فعل يقرب صاحبه من الله فهو بر ولا يمكن التقرب اليه الا بالتبرى مما سواه فمن احب من دون الله شيئاً فقد حجب به عن الله واشرك شركاً خفياً لتعلق محبته بغير الله ، فلا يزول البعد ولا يحصل القرب الا ببذل المال والمهجة وقطع محبة غير الله وافناء النفس بالكلية عن صفاتها الرذيلة.








ومن أجل هذا كان نبينا الكريم يتعوذ من البخل فيقول: اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل.

وقد عرف شيخي البخلاء في كتاب معارج الوصول فقال: البخلاء عظمت لديهم بلية الحجاب ، ولم يشهدوا منة الوهاب،وانطمست بصائرهم بشهودالأسباب،ونسوا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

ويبين شيخنا هنا أن سر بر الله لك هو برك وجودك في طريق الحق ، وعلى قدر البذل يكون العطاء والفيض من الكريم المنان، وبخلك سبب لقطع فيض الله لك وإمداده ،ولذلك قال بعضهم : أعط مما في يدك تأخذ مما في يده ويزيد ، وأعط ما في يدك تأخذ ما في يده ويزيد وأعطه يدك وما فيها يعطه يده ومزيد.

وقال شيخنا في كتابه وصايا الأمان:

إن البخيل فليس حقاً مؤمنا
أم كيف بالفردوس يشهد وجهنا

واعلم أخي أن السلوك في طريق الحق على السخاء واجتناب البخل ــ كما قال بن عطاء الله ــ وهو ما يكون ببذل النفس والمال والسر والروح والكل ، ومن بخل بشئ في طريق الحق حجب






به وبقي معه، ومن نظر في طريق الحق إلى الغير حرم فوائد الحق وسواطع أنوار القرب.
ـ وقد روى مالك رحمه الله عن مولاة لعائشة رضي الله عنها ، أن مسكيناً سأل عائشة وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لمولاة لها : أعطه إياه ، فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه ، فقالت :أعطه إياه ، ففعلت ، فلما أمسينا أهدى لها أهل بيت شاة وما كانوا يهدوا لها من قبل ، فدعتني عائشة وقالت: كلي من هذا ،هذا خيرمن قرصك.
ولذلك يبين لنا شيخنا هنا أن الله يفيض عليك من فيض عطاء الربوبية متى بذلت وأنفقت في سبيله وهو أيضاً من عطاء الله ، ولذلك قال شيخنا في بعض حكمه : علم أنك بما أنعم عليك مفتون ، وأنك شغفت به حد الجنون ، فخاطبك بقول{ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}
كما قال أيضاً: علم أن حجاب وجودك عليك بينا ، وأن حبك للمال على قلبك مهيمناً فسرى خطاب قدسه لك معلناً { إن تقرضوا الله قرضاً حسناً}.
لذلك فإن العجب كل العجب يا عباد الله ممن يدعي









الخروج عن نفسه ولم يقدر أن يخرج ما في يده.
ـــ وأختم بما قاله الإمام أحمد بن عمر في تفسيره فقال: إن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله فالخلف لهم الجنة ، والذين ينفقون أرواحهم وقلوبهم في سبيل الله فيكون الخلف عنهم ولهم الحق سبحانه ، ومن يعطي تمرة إلى فقير يأخذها الله بيمينه ويربيها كما يربي أحدكم فلوة أو فصيلة ، حتى تكون أعظم من الجبل ، فكيف بمن يعطي قلبه إلى الله تعالى وهو يربيه بين إصبعي جماله؟ فلا جرم يصير بتربيته أعظم من العرش بما فيه ، بل يكون العرش بما فيه في عرصته كحلقة في فلاة،
فأفهم جيدا .








١٤
وخيرُ وجُـوهِ البِرِ قَـصْـدٌ مُـجَـردٌ
وطُهْـرٌ وتَـسْلِيـمٌ وَجُـودٌ معَ الـرُشْـدِ

يبين لنا شيخنا أن أوجه البر كثيرة ، لكن خيرها وأفضلها في أربعة أوجه : قصد مجرد ـــ وطهر ـــ وتسليم ـــ وجود مع الرشد.
وقد نبه شيخنا على أهمية تجريد القصد فيجرد المريد قصده لله وحده ، لأنه كما قال شيخنا كفى بالمرء إثماً أن يطرق باب الحق بعبادة يريد بها وجه الخلق.
كما قال في الياقوتة :
من جرد المقصود يرجوا قربنا
يلق العناية والرعاية عوننا
اجعل مرادك بالعبادة وجهنا
تنل الشهادة والمعية محسناً
وبقدر ما تجلوا مرادك تلقنا
بمعية الأنظار تدرك سعدنا
كن طالباً وجه المليك ومحسناً
يكن النبي هو الرفيق بأمرنا
يا عابد الرحمن فاقصد وجهنا
لا تلتفت للغير تقصد خلقنا
والتجريد والتفريد يقصد بهما أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله، لا يأتي بما يأتي به نظرًا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة، بل ما كوشف به








من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادًا، والتفريد ألَّا يرى نفسه فيما يأتي به بل يرى منة الله عليه؛ فالتجريد بنفي الأغيار، والتفريد بنفي نفسه، واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه، وغيبته عن كسبه.

ونبهنا ربنا لذلك في كتابه فقال { فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً } سورة الكهف الآية ١١٠ .

وفي الحديث المأثور عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به ، فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل : اجعلوها في سجين ، إنه ليس إياي أراد بها) .

ـ وقد سمع بعض الصوفية قارئاً يقرأ { منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة} فقال: وأين من يريد الله؟.

ـ وقال الحسن البصري رحمه الله : رحم الله عبداً وقف عند همه ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر.

لأنه كما قيل : كل همٍ وذكر لغير الله تعالى فهو حجاب بينك وبين الله.





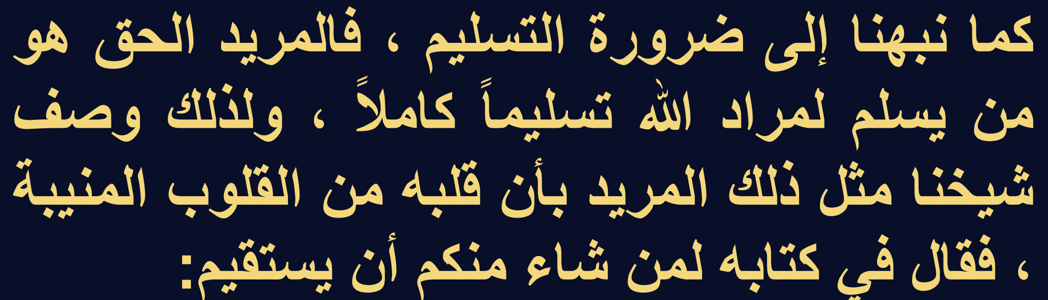
تـركـتُ للناس ما تهوى نـفـوسـهـم
مـن حـب دنـيـا ومـن عـز وجـاه
كـذاك تـركـت الـمـقـامات هـنا وهـنـا
والقـصـد غـيبتـنـا عما سـوى الله
كما نبه شيخنا على ضرورة طهارة المريد سواء ظاهراً أو باطناً ، فقال في الياقوتة :
الـطـهـر شـطـر فـيـه أمـن أمـانـنـا
فهـو الـوسـيـلة لـلـوداد وحـبـنـا
فـالـزم سـبيل الطاهـريـن بـتـوبـنـا
دامـت طهارتهم بـزمـزم عـونـنا
طـهـر فـؤادك والـلـسـان بـذكـرنـا
أخـلـص إلـينا لا تـمـيـل لغيرنـا
وعبر عن ذلك أيضاً في كتاب وصايا الأمان فقال:
بـل فـالـزمـوا طـهـراً بـلـيـل زمـانـنـا
وكـذا الـنـهـار تـطـهـروا لـلـقـائـنـا
فالطهر شطر للإيمان وقربة لجوارنا
فـتـطـهـروا فـي ظـاهـر ثـم بـاطـنـا
أما الظـواهـر طهـرهـا عـن حـرامـنـا
وكـذا الـبـواطـن عـن شـهـودٍ لـغـيـرنـا
إنـا نـحـب التائبين الـنـادمـين لـعـزنـا
وكـذا نـحـب الطاهرين الشاهدين لنورنا











كما نبهنا إلى ضرورة التسليم ، فالمريد الحق هو من يسلم لمراد الله تسليماً كاملاً ، ولذلك وصف شيخنا مثل ذلك المريد بأن قلبه من القلوب المنيبة ، فقال في كتابه لمن شاء منكم أن يستقيم:

القلب المنيب{ التسليم حالته ، والجمع معيته ،والعجز حوله وقوته }، فيوضح لنا ان القلب المنيب هو قلب مستسلم لله وأحكامه ، في حالة جمع على الله ، لا حول له ولا قوة سوى عجزه ، فهو قلب مقبل على الله بالكلية معرض عما سواه ، وهي قلوب الأولياء التي تسمع بالله وتبصر بالله وحاضرة مع الله ، تعبر عما يشير إليها الله في إظهار اللطف أو القهر.

ولذلك قال ربنا في محكم كتابه {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما} وفيها يقول ابن عجيبة رحمه الله في تفسيره : ومن لم يرض بحكم الله خرج عن دائرة الإيمان. فلا يكمل إيمان العبد حتى لا يجد في نفسه حرجًا من أحكام الله، القهرية والتكليفية، ويسلم لما يبرز من عنصر القدرة الأزلية، كيفما كان، فقرًا أو غنى، ذلاً أو عزًا، منعًا أو عطاء، قبضًا أو بسطًا،








مرضًا أو صحة، إلى غير ذلك من اختلاف المقادير. ويرضى بذلك ظاهرًا وباطنًا، وينسلخ من تدبيره واختياره إلى اختيار مولاه فهو أعلم بمصالحه، وأرحم به من أمه وأبيه.

و قال شيخنا في حكمه:لا يسلم عليه من لا يسلم إليه.

والتسليم إنما يكون لأمر الله وقدره ولآوامر النبي الكريم وورثته من العلماء والأولياء الربانيين ، وإلا كنت فاقداً لأحد شروط الإيمان ، ولن تزداد إلا بعداً وصداً.ولذلك قال سيدي أبو مدين الغوث في بعض حكمه : ثمن التصوف تسليم كلك.

كما نبه على الجود وترك البخل فقال في الياقوتة:

أنـفـق بـجـود مـن كـريـم عـطـائـنـا

ننفق عـليك خـزائـنـاً مـن جـودنـا

إن الـبـخـيـل فـلـيـس حـقـاً مـؤمـنـاً

ام كيف بالـفـردوس يشهـد وجهـنـا



وعلى قدر يقينك يكون قدر عطائك وجودك ، والسلوك في طريق الحق قائم على السخاء واجتناب البخل ، وهو يكون ــ كما قال بن عطاء الله ــ ببذل النفس والمال والسر والروح والكل ،







ومن بخل بشئ في طريق الحق حجب به وبقي معه . ولذلك قيل : من أقبح كل قبيح صوفي شحيح. وأن سادات الناس في الدنيا كما قال بن عباس هم الأسخياء ، وفي الآخرة الأتقياء.

وفي الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (السخي قريب من الله ، قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار ، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل) رواه الترمذي.

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: إذا مات السخي قالت الأرض والحفظة : يا رب تجاوز عن عبدك بسخائه في الدنيا ،وإذا مات البخيل قالت: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة ، كما حجب عبادك عما جعلته في يديه من الدنيا.

وقال الإمام الجنيد رحمه الله: لن تنالوا محبة الله حتى تسخوا بأنفسكم في الله.

ما لي سوى روحي ، وباذل نفسه
في حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيتَ بها فقد أسعفتني
يا خيبة المسعى إذ لم تسعف.








١٥
وَمِـنْ بَعـدِ مَحْـوِكَ يَا مُـرِيدُ بِـصَحْـوَةٍ
تَـلَـطفْ لِجَـمْـعِ الـزَّادِ وَاهـرَعْ بِـالـجَـدِ

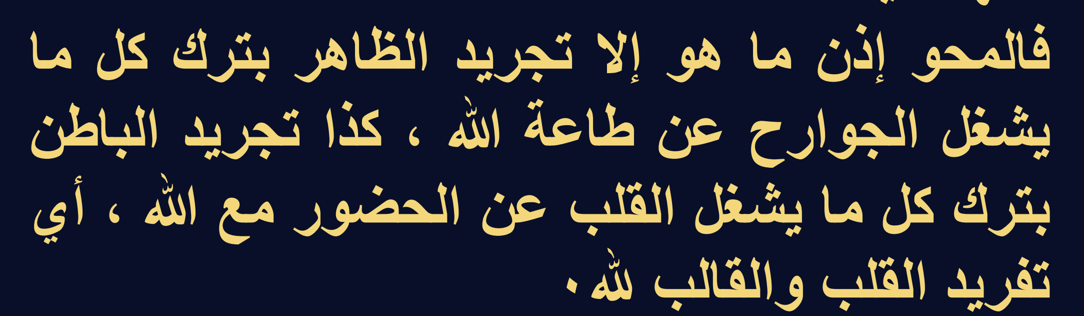



اعلم أخي أن أول طريق القوم باعث يقذفه الله في قلب عبده ليوقظه من غفلته ، فيقول له قم من غفلتك يا غافل ، فينظر العبد في أحوال نفسه وما عليها من جناية وغفلات ، ويقوى هذا الباعث في نفسه رويداً رويداً فيفيق من رقاده وغفلته ، ويتفكر في عجائب القدرة الإلهية وعجائب السموات والأرض وإبداع صانعها ، فيتوب ويقبل على نفسه ليربيها ، وهنا تبدأ حالة المحو ، لاسيما إن رزقه الله بشيخ عارف بالله ، فيأخذ بيده ليمحوا عن نفس ذلك المريد آفات نفسه الأمارة بالسوء التي تجلت على عرش قلبه ، ويخليه من أوصافه الذميمة ، ويزكي نفسه من رجس الشهوات ويطهرها من متابعة الهوى ، ويخلص روحه من غيم الغفلة ، فإذا ما تحقق له ذلك بدأت مرحلة جديدة هي مرحلة الصحو ، وهي من صحت السماء إذا زال عنها الغيم ، فيدخله شيخه فكرة العيان فيغيب عن نظرة الأكوان ويبقى المكون وحده ،فالصحوا إذن هو حاله بعد ذلك ، أي بعد تزكية نفسه وتطهير قلبه وروحه ليتحلى بالشمائل والأخلاق المحمدية ، ليكون كنبيه قرآناً يمشي على الأرض ، أي ينتقل لحال جمع الزاد







ليوم الميعاد في ستر أو في حالة تلطف كما عبر عنها شيخنا.

فالمحو إذن ما هو إلا تجريد الظاهر بترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله ، كذا تجريد الباطن بترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله ، أي تفريد القلب والقالب لله.

ثم يهرع بعد صحوه إلى جمع زاده ليوم ميعاده ، وليتلطف ولا يشعرن به أحداً ، حتى لا يشغلوه عن أوراده وأذكاره ، كما حدث مع سيدتنا السيدة نفيسة رضي الله عنها عندما هرع إليها حشود من البشر يلتمسون عندها البركة وازدحمت بها الدار ففكرت السيدة نفيسة فى مغادرة مصر حيث تعود إلى مدينة رسول الله صلى الله علية وسلم لتقضى بقية عمرها فى هدوء وعبادة ولما علم أهل مصر بذلك شق عليهم أن تفارقهم ، فالتمسوا منها العدول عن عزمها ورجوها البقاء بينهم ولكن أصرت على طلبها فلجأوا إلى والى مصر " السري بن الحكم بن يوسف " فانتقل اليها يستعطفها ويطلب منها البقاء فقالت: (إنى كنت قد عزمت المقام عندك ، غير أنى امرأة ضعيفة وقد تكاثر الناس حولى وأكثروا من زيارتى







فشغلونى عن أورادى وجمع زادى لمعادى ، غير أن منزلى هذا يضيق لهذا الجمع الكثيف والعدد الكبير ولقد زاد حنينى إلى روضة جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم) ، فقال لها السرى : (يا ابنة رسول الله إنى كفيل بإزالة ما تشكين منه وسأمهد لك السبيل وأهيئ لك ما فيه راحتك ورضاؤك ، أما ضيق المنزل فإن لى دارا واسعة بدرب السباع وإنى أشهد الله تعالى أنى وهبتها لك وأسألك أن تقبليها منى ولا تخجلينى بردها على) ، فقالت بعد سكوت طويل : (إنى قد قبلتها منك ، وقالت : يا سرى كيف أصنع بهذه الجموع الكثيرة والوفود الغفيرة) ،

فقال : (تتفقين معهم على أن يكون للزوار فى كل جمعة يومان وباقى الأسبوع تتفرغين لعبادتك ،أى : السبت والأربعاء للناس)

وكانت تقول : اللهم لا تجعل روادي يشغلوني عن أورادي وجمع زادي لمعادي .

ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله فى الحكم العطائية:

.

(ادْفِنْ وُجُودَك في أرْضِ الخُمُولِ، فَمَا نَبَتَ مما لم يُدْفَنْ لا يتم نتَاجُه).





أي استر نفسك أيها المريد وادفنها في أرض الخمول حتى تستأنس به وتستحليه، ويكون عندها أحلى من العسل، ويصير الظهور عندها أمر من الحنظل، فإذا دفنتها في أرض الخمول وامتدت عروقها فيه، فحينئذ تجني ثمرتها ويتم لك نتاجها، وهو سر الإخلاص والتحقق بمقام خواص الخواص. وأما إذا لم تدفنها في أرض الخمول وتركتها على ظهر الشهرة تجول، ماتت شجرتها أو سقطت ثمرتها.

وقال بعض العارفين: كلما دفنت نفسك أرضاً أرضاً سما قلبك سماء سماء. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبوا عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره في قسمه."

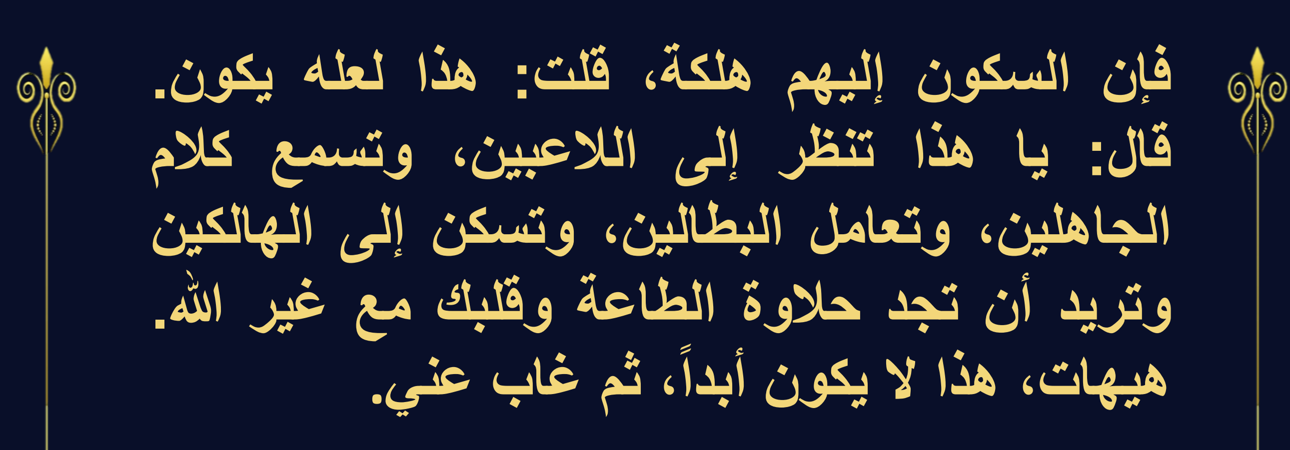
وقال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة. قلت: لا بد لي، قال: فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بد لي، قال فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم







فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون. قال: يا هذا تنظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهالكين وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله. هيهات، هذا لا يكون أبداً، ثم غاب عني.










١٦
فَمَا لَمْ تُخَلِّ النَّفْسَ وَتَسِيرَ فَانِيَاً
فَما زِدْتَ فِي طَلَبِ القَرِيبِ سِوَى بُعْدِ



وشرح لي شيخي ذلك فقال لي : " إن الطريق إلى الله أقل من خطوة ، وأنك أنت حجابك الوحيد عمن تحب ومن تريد ، وإلا كيف نفسر قول الله تعالى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) ، لكنه أمرك بالفرار منك إليه ، فخاطبك خطاب مراد لمريد ففروا إلى الله ، لذلك أقول إن وهم تعاظم إحساسك بذاتك أعماك عمن هو أقرب إليك من حبل الوريد ، فقوم حجبهم غين الأغيار وأوحال الأوزار ، وقوم حجبهم التيه في الأنوار عن منة الغفار ، وهؤلاء وأولئك بعيدون عن قريب على عباده ستار" .

ـ واعلم أن للنفس حجباً نورانية وحجباً ظلمانية ، وسبيل المريد للوصول إلى التخلص من تلك الحجب هو مجاهدتها ومخالفتها والخروج عن هواها لأنها أعظم حجاب بين العبد وربه. وفي هذا يحكى أن سيدي أبا يزيد البسطامي رحمه الله رأى ربه في المنام فقال له : يا رب كيف الطريق إليك ؟ فقال له رب العزة : اترك نفسك وتعال ، فقال أبويزيد رحمه الله : فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها .



ـ والنفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب ،












فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق لنفسه العنان فهو شريكها في فسادها ، فهي العدو الملازم للإنسان لقوله عليه الصلاة والسلام (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) رواه البيهقي ـ ويقول الإمام الحداد أن النفس تكون في أول الأمرأمارة تأمر بالشر وتنهى عن الخير ، فإن جاهدها الإنسان وصبر على مخالفة هواها ، صارت لوَامة متلونة لها وجه إلى المطمئنة ووجه إلى الأمارة ، فهي مرة هكذا ومرة هكذا ، فإن رفق بها وسار بها يقودها بأزمةالرغبة فيما عند الله صارت مطمئنة تأمر بالخير وتستلذه وتأنس به ، وتنهى عن الشر وتنفر عنه وتفرمنه .




ـ وأصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات ، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات ، وإنما تُذل النفس وتنقاد بثلاثة أشياء :



١ـ منع شهواتها فإن الدابة الحرون إنما تلين إذا نقص علفها . ٢ـ حمل أثقال الطاعات لأن الدابة الحرون إذا قل علفها وزيد حملها ذلت وصغرت وضعفت قوتها وانقادت وأطاعت ٣ ـ أن تستعين بالله عز وجل وتتضرع إليه أن يعينك عليها .







كما نبه على ذلك شيخنا فقال في الياقوتة:

فـالـنفـس طـيبـهـا لـقـدس لـقـائـنـا
جـاهـد تـشـاهـد يا مـريـدي مـن أنـا

من رام أن يـرقى لـحـضـرة قـربـنـا
يــسـعـى إلــيـنـا تــائـبـاً وبـلا أنــا

جاهد إذا رمت الـوصـال لقـدسـنا
مـا الوصل سهل إن أردت وصالـنـا

ولذلك عرف شيخنا العارف بأنه من تحلى باطنه من رجس الآفات ، وتحلى ظاهره بمظاهر الكمالات ، فتجلى الحق عليه بفيض نور الذات.

ـ وقد فاز وأفلح من هذب نفسه ورباها ، وزكاها وخلاها من أوزارها وخبثها ، وخاب وخسر من ترك نفسه هواها ، وفي ذلك أخبرنا مولانا العليم فقال جل جلاله { قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها. } وفي تفسيرها قال بن عجيبة: أفلح مَن طهَّرها من الذنوب والعيوب، ثم عن الأطماع في الأَعواض، ثم العبد نفسه عن الاعتراض على الأنام، وعن ارتكاب الحرام، وقد خاب مَن خان نفسه وأهملها عن المراعاة، ودسَّها بالمخالفات، وفي نوادر الأصول ما حاصله: أنَّ دسّاها بمنزلة مَن دسّ شيئاً في كوة،






يمنع من دخول الضوء، كذلك الهوى والشهوة سدّ وغلّق على القلب من حصول ضوء القربة والوصلة.

ولذلك روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية المذكورة يقف عليها ويقول: " اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها" .

وقد أحسن من قال:

ومن أباح النفس ما تهواه .
فإنما معبوده هواه








١٧
وَسِــرُ بَــقَــاءِ الـعَـارِفِــينَ فَـنَـاهُــمُ
بِـمَـشْـهَـدِ تَـفْـرِيـدِ الـجَـلَالَـةِ لِلأَبَـدِ




وقد سألت شيخي عن هذا البيت فوضحه لي قائلاً: إن سر دوام ذكر العارفين وأهل الله الصالحين حتى الآن هو فناهم عن أنفسهم وحظوظهم واتصالهم بالله ، مثل الشيخ الشعراوي وسيدي أحمد البدوي وسيدي عبد القادر الجيلاني وغيرهم كثير ،فهؤلاء فنوا فبقت آثارهم وما زال الناس يذكرونهم ، فمن كثرة ما فنوا في طاعة الله وانمحت رسومهم وذبلت أجسامهم ، في أنوار مشهودهم فأصبحوا مرآة لكمالات الحق ،ولذلك لم ولن ينسوا ، لأنهم كانوا يحيون بربهم لا بأنفسهم ، والله حي باق لا يموت ، ولأنهم ماتوا قبل ذلك وهي موتة نفوسهم ، والموت لا يكون إلا مرة واحدة ، فلذلك هم باقون وآثارهم باقية، مثل الإمام النووي وغيرهم ، لذلك مات قوم وهم في الناس أحياء،وقد أحسن من قال :

من أراد أن يرأى الجمال منزهاً
يفنى عن التكوين والهيئات
ويطوف بالمعنى المنزه شاهداً
لظهور نور الحق في المشكاة

ومعنى فني أي زهد في الدنيا ، زهد الجسد ، لم يعش في عالم الجسد ،










بل في عالم الروح والقلب.
والتفريد بمعنى التوحيد ، أي تفريد الله بالقصد ، أي تفريد الله بالشهود.
والفناء ثلاثة مقامات: ـ
١ـ فناء الأفعال في الأفعال ،أي يفنى فعل العبد في فعل مولاه ، بمعنى أن الله أمرني بآوامر وشرع لي شرعاً وحدَّ لي حدوداً لا أتعداها ولا أتجاوزها ، ونفسي تأمرني بعكس ذلك ، فإنْ التزمت آوامر الله وشرعه ، ولم أنقاد لما تأمرني به نفسي من فعل الموبقات والحرام ، فهنا يكون فناء الأفعال في الأفعال ، أي فنى فعلي في فعل المولى ، أي قدمت فعل الله وأمره على حظوظ نفسي وشهواتها ، وهنا يمدك الله بمظاهر الربوبية ، وهو ما حدث مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ روى أن ابا جهل قال فى ملأ من طغاة قريش لئن رأيت محمدا يصلى لأطأن عنقه ونهى سيدنا محمدا عن الصلاة وهم أن يلقى على رأسه حجرا فرآه فى الصلاة وهى صلاة الظهر فجاءه ثم نكص على عقبيه فقالوا مالك فقال ان بينى وبينه لخندقا من نار وهولاً وأجنحة فنزلت والمراد اجنحة الملائكة ابصر اللعين الاجنحة ولم






يبصر اصحابها فقال عليه السلام (والذى نفسى بيده لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضو عضوا) ، فهنا فنا النبي عن فعله ولم يلتفت لتهديد أبي جهل ، وفني في فعل مولاه فأمده الله بأمداد الربوبية ، لذلك فإن من مظاهر فناء العبد عن فعله ألا يدبر لنفسه أموره بل يتركها لمولاه ، لذلك أحسن من قال:

لا تدبر لنفسك أمراً
فذوي التدبير هلكى
فوض الأمر إلينا تجدنا
أقــــرب إليك منـــــا

وقال بن عجيبة رحمه الله: إذا تمكن العبدُ مع مولاه وتحققت محبته فيه، كانت حوائجه مقضية، وهمته كلها نافذة، إذا اهتم بشيء، أو خطر على قلبه شيء، مكّنه الله منه، وسارع في قضائه، كما فعل مع حبيبه، حين خطر بباله تزوج زينب، أعلمه أنه زوَّجه إياها. وأهل مقام الفناء جُلهم في هذا المقام، إذا اهتموا بشيء كان، إذا ساعدتهم المقادير، وإلا فسوابقُ الهمم لا تخرق أسوارَ الأقدار، ولذلك قال هنا: { وكان أمر الله مفعولاً } ، { وكان أمر الله قَدَراً مقدُوراً } .







٢ــــ فناء الوصف في الوصف ، أي فناء الصفات في الصفات ، وقال لي شيخي : إن أسماء الله منها ما هو للتحقق وهي أسماء الجمال ، لذلك ورد في الأث " تخلقوا بأخلاق الله" ، ومنها ما هو للتعلق وهي أسماء الجلال مثل القهار ، ومنها ما هو للتملق وهي أسماء الكمال.

فإن تخلى العبد عن وصفه وصفاته ، بدت عليه مظاهر الحقيقة وخلع الله عليه خلعة من خلع أسمائه وصفاته ، وكل ولي من أولياء الله تجد الله قد خلع عليه اسماً من أسمائه ، فتجد ولياً زاهداً ، وتجد ولياً غنياً ، فكلما فنيت عن أوصافك أمدك بأوصافه ،فإن فنيت عن وصف البخل فيمدك بوصف الكرم ، وإن فنيت عن وصف الكبر فيمدك بوصف العزة ، وإن فنيت عن وصف الغل فيمدك بوصف الرحيم ، وقد سمَّى الله نبيه بقوله{ رؤوف رحيم} وهي من أسماء الله ، لكنه رؤوف رحيم بما يليق بالبشر لكن رحمة الله لا تتسع لها العقول.

فمن فني عن وصفه وفعله ، تجلى عليه المولى بأوصاف الربوبية وتظهر عليه الكرامة.



ولذلك قال بن عطاء الله في حكمه: (تحقق بأوصافك يمدك بوصفه ،







وتحقق بِذُلِكَ يمدك بعزه ، وتحقق بعجزك يمدك بقدرته وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته) ٠٠٠ فمن دخل على الله بأوصاف العبودية أمده بأوصاف الربوبية ، ومعنى التحقق بالوصف أي الإتصاف به قلباً وقالباً ، فمن تعزز بالله ذل له كل شئ ، ومن استعان بالله أعانه الله على كل شئ ، وهكذا في كل الأوصاف٠٠٠ وقال سيدي الشيخ أبوالحسن الشاذلي : تصحيح العبودية بملازمة الفقر والضعف والذل لله تعالى، وأضدادها أوصاف الربوبية ، فلازم أوصافك وتعلق بأوصافه، وقل على بساط الفقر الحقيقي: يا غني من للفقير سواك ، وقل على بساط الضعف الحقيقي: يا قوي من للضعيف سواك ، وقل على بساط الذل الحقيقي: يا عزيز من للذليل سواك، تجد الإجابة كلها طوع يدك واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين٠

٣ ــ فناء الذات في الذات من غير حلول ولا اتحاد ، وهؤلاء هم الذين إذا رؤوا ذكر الله ، فالإنسان كالكتابة حينما تمحى ، فيتحقق المريد بأن كل شئ عليها فان ، فيفنى المريد عن جسده وقلبه وكيانه ويسلم روحه لله٠







١٨
وما الفـقْدُ إلا الـوجْدُ فَافْهَـمْ إِشَـارَتي
وَبِالـنَـفْـي إِثْـبَـاتُ الـشُـهُــودِ بِـلا نِـدِ

من ترك وجد ، وعلى قدر ما تترك على قدر ما تجد ، هذا ما يرشدنا إليه شيخنا في هذا البيت ، وقد أشار إلى ذلك في الياقوتة إذ قال:

اترك تجد رباً كريماً محسناً

وبقدر عزم الترك تلقى وجودنا

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أروع الأمثلة في ذلك ، فقد تركوا ديارهم وأموالهم وتجارتهم وأزواجهم وأولادهم وأهليهم فعوضهم الله خيرا ، وها هو الحاكم في المستدرك يروي بإسناده عن عكرمة قال:لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهماً فقال:لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهماً ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل وقد خلفت بمكة قينتين فهما لكم،قال وحدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس نحوه ونزلت على النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ)]البقرة: ٢٠٧]، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا أبا يحيى ربح البيع وتلا عليه الآية.

فانظر كيف ترك الصحابي كل ماله ليجد النبي ، فلما وجد النبي وجد الله فلما وجد الله وجد كل شئ






وقد هنأه النبي قائلاً: بح البيع أبا يحيي.
وها هو الصديق يأتي بماله كله ويضعه في حجر النبي فيقول له النبي: ماذا تركت لأولادك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله ،ولذلك أخبر النبي أنه ما من أحد له يداً إلا كافأه بها رسول الله إلا أبا بكر فقد ترك مكافأته لله.
وذلك انطلاقاً من أن الصوفي لا يملك شيئاً ولا يملكه شئ.
وانظر لسيدنا سليمان عليه السلام كيف قطع سوق خيله وأعناقها حينما أحبها وشغلته عن ذكر ربه ، ففعل ذلك لله فعوضه ربه خيراً منها ، بأن سخر له الريح رخاء تجري بأمره حيث أراد { إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِٱلسُّوقِ وَٱلأَعْنَاقِ.}فحينما قطعها لله لئلا تشغله عن ذكر ربه ، عوضه ربه خيرا منها فقال{ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ} فمن مَن ترك شيئاً عوَّضه الله خيراً منه، فمَن كان في الله تلفه، كان على الله خلفه.







١٩
كَـرَامَـةُ أَهْلُ الحَـي صَـوْنُ عُـهُـودَهـمُ
وَيَـسْـتَـوِي الـرِضْـوَانُ فِـي الـفَـقْـدِ وَالـوَجْـدِ

وهنا ينبهنا شيخنا إلى ضرورة أن يصون المريد عهوده ، وأن يكون راضياً مع مولاه في حال الفقد وفي حال الوجد وفي كل حالاته٠وبين أن كرامة المريد في صون عهده وميثاقه ،ولذلك وصف ربنا سبحانه وتعالى من ينقض عهده بالخسران فقال جل جلاله { ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ }سورة البقرة آية رقم٢٧

ومعناها الذين ينقضون عهد الله الذي عاهدوه يوم الميثاق على التوحيد والعبودية والإخلاص من بعد ميثاقه٠

قال قتادة: وذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته " :لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له" ٠أي لا دين لمن خان عهده مع الله ولمن خان عهده مع رسول الله ومع شيخه والناس٠

ـ وأمرنا الله بالوفاء بالعهود فقال تعالى{ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } ، وقال يحيى بن معاذ: لربك عليك عهود ظاهرًا وباطنًا، فعهد على الأسرار أن لا يشاهد سواه وعهد على الروح أن









لا يفـــــــارق مقـــــــام القربــــــــــة.
وعهد على القلب أن لا يفارق الخوف، وعهد على النفس فى آداء الفرائض، وعهد على الجوارح فى ملازمة الأدب وترك ركوب المخالفات. والله يقول: { إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً }.
ـ والمريد الذي يصون ميثاقه مع ربه وعهده مع نبيه وشيخه إنما هو مريد صفا قلبه عن الأكدار والأغيار ، وأبصر قلبه العلوم والأسرار فوفى تلك العهود ، ولذلك وصفهم الله في سورة الرعد الآيتين رقمي١٩،٢٠ بقوله {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَابِ ۝ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ }
وفي تفسيرها قال بن عجيبة رحمه الله : أفمن تَصَفَّتْ مرآة قلبه من الأكدار والأغيار، حتى أبصرت أمطار العلوم والأسرار النازلة من سماء الملكوت على النبي المختار، فتضلع منها حتى امتلأ منها قلبه وسره، ونبع بأنهار العلوم لسانه وفكره، كمن هو أعمى القلب والبصيرة، فلم يرفع بذلك رأساً؟ إنما ينتفع بتلك العلوم أولو القلوب







الصــافية التــي ذهــب خبثهــا، فصــفت علومهــا وأعمالهــا وأحوالهــا مـن زبـد المسـاوئ والعيـوب، الــذين دخلــوا تحـــت تربيـــة المشــايخ، فــأوفوا بعهودهم، وواصلوهم، وخافوا ربهم أن يبعدهم من حضـرته، أو يناقشـهم الحسـاب فحاسـبوا أنفسـهم علــى الأنفــاس والأوقــات، وصــبروا علــى دوام المجاهدات، حتـى أفضـوا إلـى فضـاء المشـاهدات، وأقاموا صلاة القلوب ـ وهي العكوف في حضرة الغيـوب ـ وأنفقـوا ممـا رزقهـم مـن سـعة العلـوم ومخـازن الفهـوم، ويقـابلون الإسـاءة بالإحسـان لأنهم أهل مقام الاحسان.

ـ كذلك الذي يصون عهده ويرضى بأمر ربه في كل حال ، هو ممن اتقى الله حق تقاته ، لذا قيل أن حق التقوى هي : صون المعهود وحفظ الحدود والخمود تحت جريان القضاء بنعت الرضا.

وقيــل هــم الــذين عاهــدهم الله علــى أن يحــبهم ويحبونه، فأوفوا بعهده وما أحبوا غيره.

قال القشيري رحمه الله: ومِنْ نَقْضِ العهد أيضاً أن يحيد سِرُّك لحظةً عن شهوده.

قال ابو يزيد البسطامى قدس سره فى حق تلميذه لما خالفه دعوا من سقط من عين الله فروئى بعد









ذلك مع المخنثين و سرق فقطعت يده هذا لمن نكث ،أين هو ممن وفى ببيعته! مثل تلميذ الداراني قيل له ألق نفسك فى التنور فألقى نفسه فيه فعاد عليه بردا وسلاما هذه نتيجة الوفاء.

كذلك يرضى في كل حالاته في السراء والضراء في حال المنع والعطاء في حال الوجد والفقد ، ويقول حبر الأمة عبد الله ابن عباس -رضي الله عنهما-: أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال.



وهذا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- يقول: "لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت، وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان".



وقد وصف الله عبده الذي يوفي عهوده ويرضى بأمر الله ويصبر على آوامر ربه ونواهيه وبلائه في السراء والضراء بأنه من الصادقين ومن المتقين فقال في سورة البقرة الآية ١٧٧ { ....والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون}.







كما جعل ذلك من صفات المؤمنين الذين أفلحوا فقال جل جلاله{ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون} وفيها ورد عن بعض العارفين: إن لله - عز وجل - إلى عبده سرّيْن يُسِرهما إليه، يُوجده ذلك بإلهام يُلهَمهُ، أحدهما: إذا وُلِد وخرجِ من بطن أمه، يقول له " :عبدي، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عُمرك، ائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني كما أخرجتك، "وسِرٌ عن خروج روحه، يقول له " : عبدي، ماذا صنعت في أمانتي عندك؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد والرعاية، فالقاك بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ "فهذا داخل في قوله عز وجل: { وَٱلَّذِينَ هُمْ لأَمَانَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } .

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم (اللَّهمَّ ما رَزَقْتَني مما أُحِبُّ فاجعَلْهُ قُوَّة لي فيما تُحِبُّ، وما زَوَيْتَ عني مما أُحِبُّ فاجعَلْهُ فَرَاغا لي فيما تُحِبُ) .

وقيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟ قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه،







فيقـول: إن أعطيتنـي قبلـت، وإن منعتنـي رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت.
لذلك فالرضا كما قال أبوسليمان الداراني هو من أخلاق المرسلين ، والمريد الراضي هو أغنى الناس لما ورد في بعض وصية سيدنا رسول الله(وارضى بما قسم الله لك تكن أغنى الناس) ، وهو كذلك من أسباب سعادته لما ورد أن رسول الله قال (من سعادة بن آدم رضاه بما قضى الله).
قال القشيري:الإشارة إلى ألا يُعلِّق العبدُ قلبَه إلا بالله، لأن ما يسوءهم ليس زواله إلا من الله، وما يسرهم ليس وجودُه إلا من الله .فالبسطُ الذي يسرهم ويؤنسهم، منه وجوده، والقبض الذي يسوءهم ويحوشهم ، منه حصولُه . فالواجب: لزوم عهوده بالإسرار، وقطعُ الأفكار عن الأغيار












٢٠
وَتَبلُغُ بِالرِضْوَانِ أَبْلَغَ غَايَةٍ
وَبالسَخْطِ إِحْبَاطٌ لعهْدِكَ والوِرْدِ



وهذا البيت مرتبط بسابقه ، إذ هو تأكيد لمعنى الرضا بالله وترك التسخط على أحكامه وتقديره ، لأن في ذلك السخط إحباط لعهدك مع الله منذ ألست بربكم ، فمن رضي بالله رباً رضي بأحكامه ،ولذلك قال الإمام علي كرم الله وجهه في حكمه : صحة الود من كرم العهد.



والرضا ضد السخط وهو ثمرة من ثمار المحبة ، وهو باب الله الأعظم إذ يفرغ القلب لله ، بخلاف السخط فهو يفرغ القلب من الله ، والرضا كما عرفه بن عطاء الله : هو سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل فيرضى به.



وقد ذكر ابن أبي الدنيا (رحمه الله) عن بشر بن بشار المجاشعي - وكان من العلماء - قال:قلت لعابد:أوصني

قال : ألق بنفسك مع القدر حيث ألقاك ، فهو أحري أن يفرغ قلبك ، ويُقلّل همك . وإيّاك أن تسخط ذلك ، فيحل بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به .



وعن وهب بن منبه (رحمه الله) قال : (وجدت في زبور آل داود : هل تدري مَن أسرع الناس مرّاً علي الصراط؟.الذين يرضون بحكمي ،







وألسنتهم رطبة من ذكري٠هل تدري أي الفقراء أفضل ؟٠الذين يرضون بحكمي وبقسمي ، ويحمدوني على ما أنعمت عليهم٠ هل تدري أي المؤمنين أعظم منزلة عندي ؟٠الذي هو بما أعطي أشد فرحاً منه بما حبس ٠



وقال بن عجيبة رحمه الله: البسط والقبض يتعاقبان على العبد تَعَاقُبَ الليل والنهار. فالواجب على العبد: الرجوعُ إلى الله في السراء والضراء، فالبسط يشهد فيه المنّة من الله، ومقتضى الحق منك الحمدُ والشكر٠ والقبض يشهده من الله امتحاناً وتصفية، ومقتضى الحق منك الصبرُ والرضا، وانتظار الفرج من الله فإن انتظار الفرج مع الصبر عبادة٠












٢١
وفي المَنعِ يَنْبَسطُ العَطاءُ بحكمةٍ
وَقَتْلُ الغُلَامِ هُو الإِشَارَةُ بِالوِرْدِ





فعطاء الله عطاء ، وكذلك منعه عطاء ، فالمريد الحق يعلم بأنه كل من عند الله فيرضى سواء كان الأمر منعاً أو عطاء ، وهو ما يرشدنا إليه شيخنا في هذا البيت ، ودلل على ذلك بما فعله الخضر عليه السلام من قتله للغلام ، فظاهر الأمر بلاء ومنعِ ، ولكنه في الحقيقة عطاء ومنح ، وهذا ما بينه الخضر لكليم الله سيدنا موسى عليه السلام وبينها لنا مولانا في قوله{وَأَمَّا ٱلْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ۰ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً }۰



ولذلك قيل : بأن (المنع من الله إحسان) ، لأنه حبيبك وكل ما يفعله الحبيب محبوب۰



لذلك قال ابن العربي الحاتمي: إذا مُنِعْتَ فذاك عطاؤه ، وإذا أعطيت فذاك منعه ، اختر الترك على الأخذ۰

وفي الحكم لابن عطاء الله : (ربما أعطاك الله فمنعك ، وربما منعك فأعطاك)۰ وذلك لأن النفس الأمارة واللوامة غالباً ما تنبسط عند العطاء ، لأن في العطاء متعتها وشهوتها ، كما أنها تنقبض عند المنع ، لأن في المنع قطع موادها وترك حظوظها ، وهي في هذا وذاك جاهلة بربها لم تفهم عنه







حكمته ، ولذلك قال بن عطاء الله في حكمه : متى فتح لك الله باب الفهم في المنع ، عاد المنع هو عين العطاء. فلا تتهم ربك بل تعرف إليه وافهم عنه وألق قيادك بين يديه ، حينذاك تدرك ــ كما في الحكم ـــ متى أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو في كل ذلك متعرف عليك ومقبل بوجود لطفه عليك.

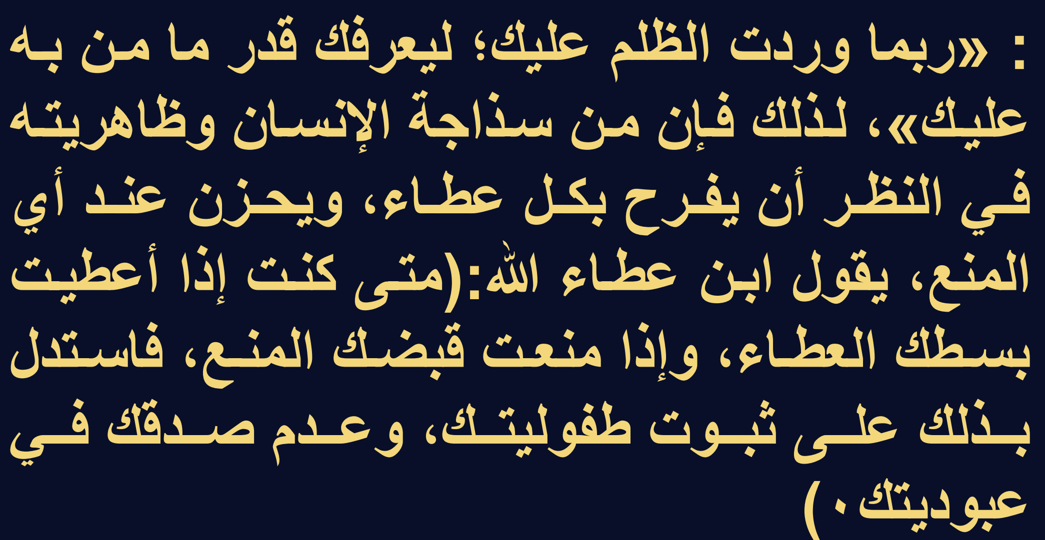
فربما أعطاك ما تشتهيه النفوس ، فمنعك بذلك حضرة القدوس ، وربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها ، فمنعك جمال الحضرة وبهجتها ، وربما أعطاك إقبال الخلق فمنعك من إقبال الحق ، وربما منعك من إقبال الخلق ، فأعطاك الأنس بالملك الحق ، وربما أعطاك العلوم وفتح لك مخازن الفهوم ، فحجبك بذلك عن شهود المعلوم ومعرفة الحي القيوم... وعلى الإجمال إن عرفت ذلك فالزم مراد الله وتدبيره وارض به إذ هو الحكيم العليم.

وكذلك فإن المنع من المنفعة العاجلة قد يكون فيه دفع لمضرة آجلة، فربما منع الله عنك شيئاً لو أعطاه لك لابتعدت عن حضرته، فهنا يكون المنع سببا الاصطفاء، يقول ابن عطاء الله







: «ربما وردت الظلم عليك؛ ليعرفك قدر ما من به عليك»، لذلك فإن من سذاجة الإنسان وظاهريته في النظر أن يفرح بكل عطاء، ويحزن عند أي المنعِ، يقول ابن عطاء الله:(متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء، وإذا منعت قبضك المنع، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك، وعدم صدقك في عبوديتك٠)

ـــ والقرءان حافل بالدلالة على هذه المعاني فسورة يوسف أظهرت أن منع سيدنا يوسف من البقاء بجوار والده كان عين العطاء له ، إذ صار نبياً عزيزا ، وفي سورة القصص قوله تعالى {إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين٠ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الاَرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين}فانظر كيف كان العطاء لفرعون منعا من رحمة الله، وكيف كان منع بني إسرائيل عين العطاء ٠








٢٢
فغَايـةُ أهـلِ الـودِ فُـرْقـانُ مَـشْـهَـدٍ
لـفـرْدٍ تَـقَـدَّسَ بـالـكَـمَـالِ إلـى الأبَـدِ






يبين شيخنا أن غاية أهل الإحسان وهم أهل الود هي شهود وجه مولاهم الفرد المتقدس بالكمال ،لم يقصدوا بطاعتهم سوى رضا مولاهم ، لا قصدهم الحور العين ولا الجنان ، بل قصدهم وجه الرب الله ، وهو إخلاص أهل الصدق والإحسان ، وقد وصفهم مولاهم في كتابه حينما أمر نبيه أن يصبر نفسه معهم فقال جل شأنه{ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ } وفي تفسير قوله تعالى :{ يريدون وجهه }،قال بن عجيبة رحمه الله: بيَّن أن دعاءهم وسؤالهم إنما هو رؤيته ولقاؤه، شوقًا إليه ومحبة فيه، من غير تعلق بغيره، أو شُغل بسواه، بل همتهم الله لا غيره، وإلاَّ لَمَا صدق قصر إرادتهم عليه . قال في الإحياء: من يعمل اتقاء من النار خوفًا، أو رغبة في الجنة رجاء، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة، وإن كان نازلاً بالإضافة إلى من قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله، لا لأمرٍ سواه . ثم قال: وقول رويم: الإخلاص: ألا يريدً صاحبه عليه عوضًا في الدارين، هو إشارة لإخلاص الصدِّيقين،








وهو الإخلاص المطلق، وغيره إخلاص بالإضافة إلى حظوظ العاجلة.كما قال أبواليزيد البسطامي: لو أن الله سبحانه حجب أهل الجنة عن رؤيته ، لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار.

فأهل الود العارفين إنما أعمالهم وأقوالهم وصدقاتهم يريدون بها وجه الله، لا يريدون بذلك جزاء، أي: عِوضاً دنيوياً ولا أخروياً، ولا شكوراً مدحاً أو ثناءً إذ قد استوى عندهم المدح والذم، والمنع والعطاء، قائلين: إنا نخاف من ربنا، إن طلبنا عوضاً، أو قَصَّرنا في الدعاء إلى الله، يوماً شديداً تُعبّس فيه وجوه الجاهلين، وتُشرق وتتهلّل وجوه العارفين. ولذلك كانت الصدّيقة رضي الله عنها تبعث بالصدقة، ثم تسأل الرسولَ ما قالوا، فإذا ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله، ليبقى لها ثواب الصدقة خالصاً . وهذا البيت لا يدعوا إلى الإخلاص فقط ، بل يدعوا إلى التقرب إلى الله بطيب الأعمال والأموال ، ما دام يريد بها وجه الله ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.







٢٣
وَرَفْعُ الجِدَارِ هُوَ المُرُوءَةُ يَا فَتَى
وَصُنْـعُ المَكَارِمِ فِي مُحِبِك وَالنِّـدِ





يشير شيخنا إلى خلق كريم هو خلق المروءة والإحسان إلى من أحسن إليك ومن أساء إليك ، وقد وضح ذلك الخلق بالإشارة إلى ما فعله الخضر عليه السلام في قصته مع سيدنا موسى حينما مرا على قرية ووجدا فيها جدار بيت أوشك على السقوط والانهيار فأصلحه ، رغم أنهم طلبوا طعاما من أهل هذه القرية فلم يطعموهم.



واعلم أخي أن ذلك ليس سهلاً ميسوراً ، فإن العدل قد يقتضي أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك ، لكن المروءة وخلق الأنبياء أن تحسن لمن أساء إليك ، كما فعل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع أهل الطائف حينما دعاهم لعبادة الله وحده وإلى الإسلام ، فآذوه ورموه بالحجارة حتى أدموا قدمه الشريف ، فيرسل الله إليه ملك الجبال ليقول له : إن أمرتني أطبق عليهم الأخشبين أي الجبلين لفعلت ، ولكن رسول الله يأبى ذلك ويعاملهم بالمروءة والرحمة ويقول : لا ، عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.




واعلم أخي أن المرء إذا ما أسئ إليه وأوذي ، قامت عليه نفسه ودعته إلى الإنتصار لها ورد






الإساءة بالإساءة والإنتقام لها ، ويقع فريسة لنفسه وهواها وللشياطين ، وهذا شأن أهل الغفلة المملوكين في أيدي نفوسهم وشياطينهم وأهواءهم ، لكن أهل المروءة والمريد الصادق تأبى عليه نفسه المؤمنة الصادقة المطمئنة أن تنساق وراء شهواتها والانتصار لها ، بل تدعوه نفسه تلك إلى الرحمة والغفران ومقابلة الإساءة بالإحسان.

لذا فإن المروءة ومقابلة الإساءة بالإحسان من صفات عباد الرحمن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض رحمه الله في تفسير قول الله (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) : إن جهل عليه سلم ، وإن أسئ إليه أحسن ، وإن أحرم أعطى ، وإن قطع وصل.

وهو من أفضل الفضائل إذ أثر عن النبي الكريم قوله(من أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتصفح عمن شتمك).

وهو علامة على حسن الخلق ، وإن العبد كما أخبر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة.







وقد أحسن من قال:

ازرع جميلا ولو في غير موضعه

فلن يضيع جميل أينما صنع

إن الجميل إذا طال الزمان به

فليس يحصده إلا الذي زرع








٢٤
خُذْ العَفْوَ فِي حُلَلِ السَمَاحَةِ يَا فَتَى
تُفْتَّح لَكَ الـحَضَـرَاتِ فَتْحَــاً بِلا رَدِ



يرشد الشيخ مريديه إلى التخلق بخلق العفو مع السماحة ، لتنهال عليك فتوحات الحضرة الربانية.

{وإذا ما غَضِبُوا هم يغفرون } لم يقل الحق تعالى: والذين لم يغضبوا لأن الغضب وصف بشري، لا ينفك عنه مخلوق، فالمطلوب المجاهدة في دفعه، وردّ ما ينشأ عنه، لا زواله من أصله، فعدم وجوده في البشر أصلاً نقص، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه: " مَن اسْتُغضِب ولم يغضب فهو حمار " فالشرف هو كظمه بعد ظهوره، لا زواله بالكلية.

ولعظم هذا الخلق جعل أجره عليه ، إذ يقول مولانا { فمن عفا وأصلح فأجره على الله} وعنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ينادي منادٍ يوم القيامة: من كان له أجر على الله فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا).

وقد عاتب المولى سبحانه سيدنا أبى بكر الصديق حينما أقسم أن يمنع عن مسطح ما كان يعطيه إياه بعد أن خاض في عرض ابنته أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها فقال { وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ







وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِـي سَـبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُـواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

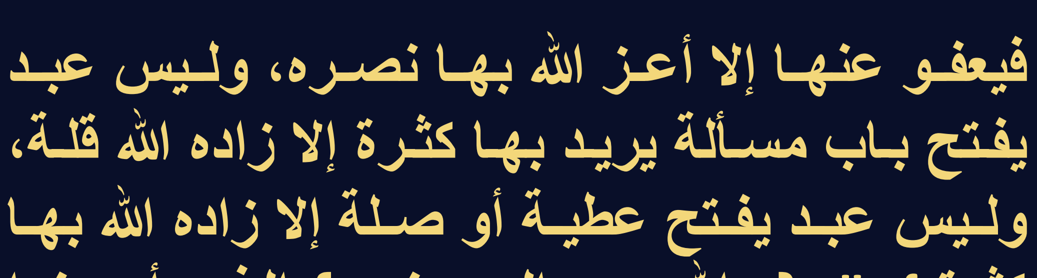
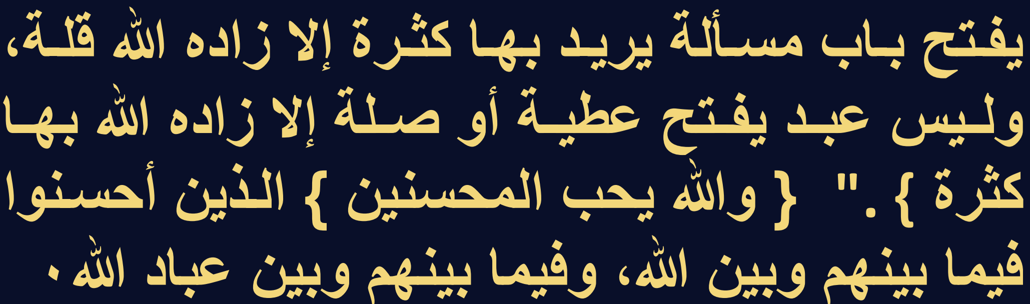
فـي الآيـة بيـانُ وتأديـبُ الله للشـيوخ والأكـابر ألاَّ يهجروا صاحب العثرات والزلات، من المريدين، ويتخلقوا بخلق الله، حيث يغفر الذنوب العظامَ ولا يبالي، وأَعْلَمَهُمْ الاّ يَكُفُّوا أعطافهم عنهم.

{ والعافين عن النـاس } لأن الصوفي مالـه مبـاح ودمه هدر. وكان بعض الصوفية يقول: إذا أردت أن تعـرف حـال الفقيـر فأغضـبه، وانظـر إلـى مـا يخرج منه.

وعَنْ أبي هريرة: أن أبا بكر كان مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في مجلس، فجاء رجل فوقع في أبي بكر، وهو ساكت، والنبيّ صلى الله عليه وسلم يبتسم، ثم ردَّ أبو بكر بعضَ الرد، فغضب عليـه الصلاة والسلام - وقام، فلحقه أبو بكر، وقال: يا رسول الله، شتمني وأنت تبتسم، ثم رَدَدْتُ عليـه بعضَ ما قال، فغضبتَ وقُمتَ. قال " :حين كنتَ ساكتاً كان معك مَلَكٌ يردُّ عليه، فلما تكلمتَ وقع الشيطان، فلم أكُنْ لأقعدَ في مقعدْ فيه الشيطان، يا أبا بكر، ثلاثٌ حق: تعلم أنه ليس عبد يظلم مظلمة





فيعفو عنها إلا أعز الله بها نصره، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة، وليس عبد يفتح عطية أو صلة إلا زاده الله بها كثرة } ." { والله يحب المحسنين } الذين أحسنوا فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين عباد الله ٠








٢٥
وَفِي كَلْبِ أَهَلُ الكَهْفِ سِرُ بِشَارَةٍ
بِأَنَّ الإِسَاءَةَ لَا تَضُرُ مَعَ الودِّ



ينبه شيخنا كل مريد سالك إلى ضرورة الطاعة مع الود ، فطاعة من غير ود صدود ، وإذا ما صدر منك ذنب فلا تيأسن من عفو ربك ورحمته والجأ لربك في ود واسأله أن يتجلى عليك برحمته لا بعدله ، ولذلك قيل في الحكم العطائية(لا صغيرة إذا قابلك عدله ، ولا كبيرة إذا واجهك فضله) ولذلك قال سيدي أبوالحسن الشاذلي في بعض دعائه.(واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك ، والإساءة لا تضر مع الحب منك.)

وفي البيت يشير شيخنا إلى كلب أهل الكهف الذي تداركته رحمة ربك ووده ففاز وصار يعرف بفتية أهل الكهف ، كذلك العاصي تتداركه رحمة ربه ووده فيغمره بواسعِ رحمته وفضله ، وهو بشرى لكل مريد قد تزل قدمه لا تجزعن ولا تيأسن من رحمة مولاك فربك يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم.

ولك في قصة سيدنا آدم عليه السلام أبلغ دليل على ذلك ، إذ قال ربنا في سورة طه ليعلمنا ذلك { وعصى آدم ربه فغوى.








ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى } وفي تفسيرها قال بن عجيبة رحمه الله: قال الواسطي: العصيان لا يُؤثر في الاجتبائية، وقوله: { وعصى } أي: أظهر خلافًا، ثم أدركته الاجتبائية فأزالت عنه مذمة العصيان، ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: { فنسي ولم نجد له عزمًا }. هـ. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: نعمت المعصية أورثت الخلافة. واعلم أن آدم عليه السلام قد أهبط إلى الأرض قبل أن يخلق، قال تعالى }:إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً] { البَقَرَة: ٣٠] فقد استخلفه قبل أن يخلقه، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب، فكان أكله سببًا في نزوله للخلافة والرسالة وعمارة الأرض، فهو نزول حسًا، ورفعة معنى، وكذلك زلة العارف تنزله لشرف العبودية، فيرتفع قدره عند الله.

فانظر أخي المسلم كيف عصى أدم ربه ، لكن جنايته هذه لم تحط من العناية ، إذ أدركته عناية ربه وفضله فتاب عليه وهداه ، ورفعه من جنة الزخارف إلى الخلافة وعمارة الأرض وإلى جنة الشهود .. فحقاً الإساءة لا تضر مع الود.











وانظر كيف الحال مع ابليس اللعين فقد كان طاووساً بين الملائكة ولا يوجد موضع في السماء إلا سجد لله فيه سجدة ، ومع ذلك حينما كانت له مشيئة مع مشيئة الله وحينما تكبر على الله تجلى الله عليه بعدله فكان جزاؤه اللعن إلى يوم الدين ، فقال له ربه { فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين} وقال { لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين}.












٢٦
ولا يُكْثِرُ الشَكْوَى مَعَ الحُبِ صَادِقٌ
ولَا يَقْهَرُ الوسواسُ صَدْرَاً بِه وِدُ

وهذا هو حال المريد الصادق الذي صدق في محبته لمولاه ، فسلم له نفسه وروحه وما ملك ، فحبس لسانه عن الشكوى عند نزول البلاء ، وحبس قلبه عن التسخط لقضاء مولاه ،لأن المحبة هي إيثارك لمولاك على نفسك وروحك ومالك وموافقتك له سراً وجهراً ، فالحبيب يفعل ما يشاء ، إن شاء وصل ، وإن شاء هجر ، وإن شاء أبلى وإن شاء أعطى أو منع ، ولذلك قال الإمام الجنيد: المحبة أن تحب ما يحبه المحبوب ولو كان فيه الموت.

فمتى أحب المريد مولاه وعلم أنه لله ، استعذب البلوى كالحلوى ، لآنها ممن يحب ويهوى ، فقد طابت في محبته البلوى ، ولذلك ما أحسن قول القائل:

فما في الهوى شكوى ولو مُزِقَ الحشا
وعار على العشاق في حبك الشكوى

ولذلك لما دخل ذو النون على مريض يعوده ، فبينما كان يكلمه أنَّ أنَّةً ، فقال له ذوالنون: ليس بصادق في حبه من لم يصبر على ضربه ، فقال المريض: بل ليس بصادق في حبه من لم يتلذذ بضربه.







لذلك أحسن من قال:

إذا طَرَقَتْ بابي من الدهر فاقة
فتحتُ لها باب المسرة والبشر

وقلتُ لها أهلاً وسهلاً مرحباً
فوقتك عندي أحظى من ليلة القدر

كما حكي عن أبي يزيد قوله: منذ عرفتُ اللهَ ما شكوت أحداً قط لعلمي بقيام الله بأحوال العبيد.

كذلك فإن مثل هذا الصدر الممتلئ بحب الله لا يقهره وسواس ولا يدخله سواه ،إذ هو قلب غاب عن الناس والوسواس في شهود رب الناس ، كما قال بعضهم:

إن كان للناس وسواس يوسوسهم
فأنت والله وسواسي وخناسي

لذلك قيل: قلب العارف أو صدره هو كعبة الوجود وهو بيت الرب ، فارغ مما سوى الله ، مملوء بالإيمان والود والطمأنينة ، وتحاربه جيوش الخواطر والوساوس ، تريد تخريبه وقهره ، فيحميه الله منهم ، كما حمى بيته الحرام من أبرهة وجيشه ، بالطير الأبابيل ، فجعلتهم كعصف مأكول.

ولذلك قال الجنيد :المحبة هي أخذة من الله لقلب










عبده عن كل شئ سواه.

وفي تفسير الرازي: شكا بعض المريدين من كثرة الوسواس، فقال الأستاذ: كنت حداداً عشر سنين، وقصاراً عشرة أخرى، وبوابًا عشرة ثالثة، فقالوا: ما رأيناك فعلت ذلك، قال: فعلت ولكنكم ما رأيتم، أما عرفتم أن القلب كالحديد؟ فكنت كالحداد ألينه بنار الخوف عشر سنين، ثم بعد ذلك شرعت في غسله عن الأوضار والأقذار عشر سنين، ثم بعد هذه الأحوال جلست على باب حجرة القلب عشرة أخرى سالا سيف «لا إله إلا الله» فلم أزل حتى يخرج منه حب غير الله، ولم أزل حتى يدخل فيه حب الله تعالى، فلما خلت عرصة القلب عن غير الله تعالى وقويت فيه محبة الله سقطت من بحار عالم الجلال قطرة من النور فغرق القلب في تلك القطرة، وفني عن الكل، ولم يبق فيه إلا محض سر((لا إله إلا الله)).








٢٧
وَما لَمْ يَكُـنْ مَـا تَـدَّعِيـهِ حَقِيقَـةً
يُطَابِقُ مَا تَـطْوِيـهِ مِـتَ عَلى ضِـدِ





وهي دعوة من الشيخ للمريدين بأن يطهروا ظواهرهم وبواطنهم ، وأن يكون ظواهرهم مجلى لما تطويه بواطنهم ، فمن ادعى الإحسان والولاية والصفاء وتظاهر بها ، وباطنه مملوء بالأغيار ، كان عند الله مذموماً ويخشى عليه سوء العاقبة ، لذلك قال شيخنا في بعض حكمه : من حرر ظاهره وباطنه مما سواه ، أقبل إلى ضعفه بعين إحسانه ورضاه ، وأنبته نبات العناية واصطفاه ، وتكفله بقدراته الذاتية.



ولعظم ذلك كان العارفون يبتهلون لمولاهم أن يصلح ظواهرهم وبواطنهم ، فقد كان سيدي مصطفى البكري يقول في بعض دعائه في ورد السحر: ...وأصلح مني يا مولاي ظاهري ولبي.....إلهي زين ظاهري بامتثال ما أمرتني به ونهيتني عنه ، وزين سري بالأسرار وعن الأغيار فصنه.

ولذلك متى كان ظاهرك طاهراً نقياً كباطنك فاعلم أن ذلك من فضل الله عليك وأنك في خير عظيم وأنك سائر في معارج الوصول ، لذا قال شيخنا في بعض حكمه: متى زين ظاهرك برداء وصفه ، وأشرق في باطنك من أنوار قدسه ،فقد دعاك









لمعارج أنسه ، واستودعك سره الأعظم.

ـ أما إن كان ظاهرك وما تدعيه ليس له صدىً في باطنك ، فهو النفاق بعينه الذين وصفهم الله بقوله { يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً} ، وفي تفسيرها قال بن عجيبة رحمه الله:الإشارة: كل من أحب أن يَرى الناسُ محاسنَ أعماله وأحواله، ففيه شعبة من النفاق وشعبة من الرياء، وعلامة المرائي: تزيين ظاهرة وتخريب باطنه، يتزين للناس بحسن أعماله وأحواله، يراقب الناس ولا يراقب الله، وكان بعضُ الحكماء يقول: يقول الله ـ تعالى ـ " :يا مُرائي: أمرُ من ترائى بيد من تعصيه "فمثل هذا أعماله كلها قليلة، ولو كثرت في الحس كالجبال الرواسي، وأعمال المخلصين كلها كثيرة ولو قلَّت في الحس، وأعمال المرائين كلها قليلة ولو كثرت في الحس.

وقد عاتب الله أقواماً قالوا لو نعلم أحب الأعمال الله إلى الله لسارعنا إليها ولزمناها ، فلما نزل فرض الجهاد تثاقلوا فيه وتقاعسوا عن إتيانه ، فقال جل جلاله { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون } .








وقيل نزلت في قوم قالوا إذا لقينا العدوا ثبتنا وقاتلناهم قتالاً شديداً ، فلما كان يوم غزوة أحد ، فر بعضهم ولم يثبتوا مع رسول الله حتى شج رأسه الشريف وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم ، فعاتبهم الله بهذه الآية وبين لهم أن من أعظم المقت والبغض أن تقولوا ما لا تفعلون ، وذلك لأن من لوازم الإيمان الحقيقي الصدق وثبات العزيمة ، لذا بين لنا شيخنا في هذا البيت أن يستوي ظاهرك وباطنك ، وأن يكون باطنك مطابقاً لما تظهره من الإيمان. وهو توجيه أيضاً لكل مريد ألا يدعي حالاً أو مقاماً ليس فيه ، كما هو عتاب لكل مريد عاهد شيخه ومن قبله ربه ونبيه أن يجاهد نفسه وهواه وجنود إبليس أجمعين ويقاتلهم ويدفعهم عنه ، ثم هو لا يفعل بل يترك نفسه فريسة للشياطين وأعوانهم ولا يجاهدهم ، فيقول له مولاه لم تقول ما لا تفعل.









٢٨
تَـنَـزْهَ عَـن الـمَــالِ الـحَــرَامِ تَـوَرُعَــاً
وَخَـلِّ سَـبِـيـلَ الـمُـوبِـقَـاتِ إِلـى الأَبَـدِ




يخاطب شيخنا كل مريد سالك في الطريق ليبتعد عن المال الحرام وأن يبتعد عن الذنوب والموبقات دائماً أبداً ، وهذا هو مسلك أهل الإحسان الذين وصفهم الله في كتابه بقوله جل جلاله { الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم} وهو مسلك أهل الإحسان وسار عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقصص في ذلك كثيرة منها ، أن عبد الله بن عمر سار يوما ومعه بعض إخوانه فلقي راعي غنم فقال إبن عمر للراعي (بعنا شاة من هذه الغنم) فقال الراعي إنها ليست لي ، إنها لسيدي ، فقال ابن عمر (قل لسيدك أكلها الذئب) فقال الراعي فأين الله ، فبكي إبن عمر وظل يردد فأين الله ، ثم ذهب الي صاحب الغنم وإشتراها منه ، وإشتري العبد ، وأعتقه ووهب له الغنم.

وبين لنا شيخنا مضار الحرام وظلماته فقال في كنوز الإشارات :(من ظلمات أكل الحرام : ــ المال الحرام له تسع ظلمات : لا يقبل لصاحبه صلوات ، يسوق القلب للشهوات ، يقوي الجرأة على الزلات ، يطمس البصيرة بالغفلات ، يحجب عن فعل الصالحات ،






ينزع الأنوار والأسرار والبركات ، يصد عن طريق الأئمة السادات ، يجلب الهم والأمراض والبليات ، يصرف عن الأوراد والآيات) .

ولذلك قال شيخنا في الياقوتة:

طهر طعامك والشراب من الضنا
ظلم العباد له ظلام عندنا
وابعد عن الحرمات تصبح عبدنا
حقاً وإلا سوف تحرم وصلنا
فعل الحرام فذاك باب صدودنا
وهو الطريق لفتح ظلام العنا

بل نبه شيخنا كذلك ليس إلى ترك المال الحرام فقط ، بل نبه كذلك إلى الحرص على إطعام أولادك من الحلال فقال في الياقوتة:

أطعمهم المال الحلال برزقنا
لا تبتليهم بالحرام فيحرموا بركاتنا

ووضح ذلك شيخنا في دروس كنوز الإشارات فقال :(والله ما اجترأت النفوس على الآثام الا بعد أكل الحرام ،وما نزلت البلايا والأوحال إلا بعد ترك الورع في جمع الأموال ، وما انصدت الناس عن الصراط المستقيم ،الا بعد التعدي على مال اليتيم ،






وما فسدت القلوب الا بما سكن الجيوب.لعلك تكون قد فهمت قول الحبيب عليه السلام لسيدنا سعد : أطب مطعمك تكن مستجاب الدعاء ، فلاتتعب نفسك في معرفة الأسم الاعظم ، لكن جاهدها ان تطيب المطعم ، وساعتها يستجاب لأمانيك قبل دعاويك ، ويستجاب لآمالك قبل أقوالك.فبقدر ما تكن له مجيباً يكن لك مجيباً ، فربك يقول ((فإني قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون))..كما أكد شيخنا على ذلك في بعض حكمه فقال (من عصم بطنه عن أكل الحرام ، عصم الله باطنه من ظلمةالآثام).

فيا أيها المريد إياك وأكل الحرام ، واجعل بينك وبين الحرام وشبهاته سداً منيعاً ، لأنه ظلمة عظيمة ، لأن من عرف أن الله يشهد حاله فكيف بالحرام يملأ بطنه ، بل كيف بالوصال يطمع ، فإن أهل الوصال حالهم كما قال الشيخ :

وكذا الطعام تورعوا بحلالنا

خَلوا بواطنهم وباتوا عندنا

ــ كان يوسف بن أسباط رحمه الله يقول:








إن الشاب إذا تعبد قال الشيطان لأعوانه : انظروا من أين مطعمه؟ فإن كان مطعم سوء قال : دعوه يتعب ويجتهد فقد كفاكم نفسه ، إن اجتهاده مع أكل الحرام لا ينفعه.

وكان أشياخنا يعلموننا ذلك ويقولون لنا: أطب مطعمك ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار.

ــ وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفلون عن الورع وهو أفضل العبادات ، لو يعلم آكلُ الحرام ما يحدث في قلبه من الظلمة والقساوة وفتور الجوارح لطوى الأيام والليالي جوعاً ، لأن العمل الصالح ينشأ عن أكل الطيبات.

ــ وذلك لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، أما قال ربنا في محكم كتابه (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد : (يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة) .

ومن اجتهد وجاهد في البعد عن الحرام عصمه الله عن الحرام ، وهذا هو الحارث المحاسبي رحمه الله ، كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ، ضرب على رأس أصبعه عِرْقٌ ، فيعلم أنه حرام.



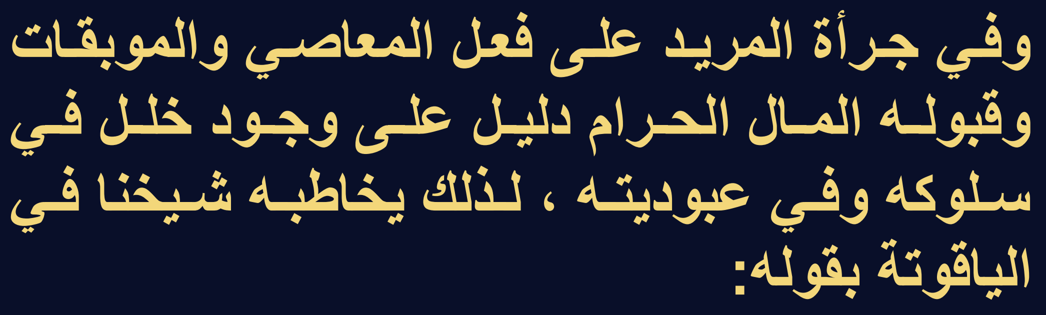







وفي جرأة المريد على فعل المعاصي والموبقات وقبوله المال الحرام دليل على وجود خلل في سلوكه وفي عبوديته ، لذلك يخاطبه شيخنا في الياقوتة بقوله:

أنى تكون عليك نظرة وصلنا
والروح في سجن المعاصي واهنا
عين تعامت عن مبين حضورنا
هيهات أن تشهد منازل قدسنا



بل هو دليل على غفلته وعدم مراقبته لمولاه ، إذ كيف يكون مراقباً لمولاه ويعلم أن الله حاضره كيف يعصاه ويتجرأ على فعل الموبقات والآثام والسعي للمال الحرام ، ولذلك قال شيخنا:

وإذا خلوت بظلمة صن عهدنا
إن الرقيب يراك فاشهد وجودنا
من عرف أن الله يشهد حالنا
كيف المآثم بالصحائف يلقنا
راقب معيتنا نراك بعيننا
وعن القبيح فغض طرفك وارضنا








٢٩
فَليسَ كَـرِيمَ الـذِكْـرِ مَـا زَادَ وِرْدُهُ
ولَكِـنَّ وِرْدَ الـعَـارِفِـينَ هُـو الـودُ



يوضح شيخنا في هذا البيت مبدأً عظيماً من مبادئ السير لرب العالمين ، وهو الود لله رب العالمين ، فبين أن الكريم لا يعرف بكثرة أوراده وذكره وطاعته ، بل بمقدار وده لمولاه وخالقه.

ذلك أن المريد الصادق العارف بربه إنما هو عبدٌ ملأ حب الله ووده قلبه وكيانه ، وقد تمكن ذلك الود من شغاف قلبه ، فظهرت آثار ذلك على جوارحه ، فتراه مجداً في طاعته ، يذكره دائماً ويأنس بذكره ، لا يغفل عن ذكره إما بلسانه أو بقلبه أو بسره أو بكله ، فكله بربه مشغول ، لأنه كما قيل من أحب شيئاً أكثر ذكره.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فأصلي الليل أبدا وقال الآخر وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر وقال الآخر وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ !









أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني. (متفق عليه).وهذا الحديث له دلالات عديدة منها الاقتصاد في العبادة والسير على نهج المصطفى وهديه .... ومنها أن العمل الكثيرمن ذكر وصوم وصدقة وغيرها إن خلت عن الود فهي ناقصة غير كاملة ، إذ لابد معها من الود ، وإذا صحب الذكر الود كان أكملاً ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لا ينهانا عن بلوغ الكما في الطاعة والعبادة ، ولكن يوضح إلى أن الكمال في الطاعة هو ما كانت دائمة ، ولذلك ورد في الأثر أن خير الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ، وديمومية الطاعة والذكر لا تتأتى إلا إن كانت نابعة عن ود وحب ، وإلا أصابت صاحبة بعد مدة بالفتور والملل ، وهذا يتنافى مع من يذكر مولاه ويطيعه عن ود وحب.









٣٠
وَمَا دُمْـتَ بَـينَ الـوِرْدِ والـودِ قَـائِـمَـاً
فَـحَـبْـلُـكَ مَـوْصُـولٌ وَدِيـنُـكَ فِـي رَشَــدِ

وهو ينبه هنا على ضرورة الطاعة مع المحبة وهذا فيه الوصال ومنتهى رشدك أيها المريد ، وهو تأكيد لبعض معنى البيت السابق ، فالطاعة والذكر من غير ود لا طائل منها وإن كثرت ، ولذلك قال سيدي أبا المواهب الشاذلي: عبادة المريد مع محبته للدنيا شغل للقلب وتعب للجوارح ، فهي وإن كثرت قليلة عند الله تعالى.

.. وكفى بالله وداً أن ضاعف الأجور للخلق على ما لم يعملوا { والله خلقكم وما تعملون }.

وقد حدد شيخنا في كتابه كنوز الإشارات من مظاهر العبودية:لزوم الورد ووصل الود ، وقال بأن من لزم الورد فله في منزل الأنس مأوى ، ومن وصل الود شرب وارتوى.







٣١
وَمَـنْ رَامَ أَجْـرَ الــبِرِ مَـنَّـاً وَلَـمْ يَـرَى
فِـعَـالَ مُـرِيـدٍ ضَـيَّـعَ الـوِرْدَ بِالـعَـدِّ



وهذا البيت يعالج فيه الشيخ احدى الآفات التي تصيب السالكين ، فترى البعض يمن على مولاه بما يتلوه من أذكار وأوراد وأعمال صالحات ، وعميت بصيرته عن مشاهدة منة الله عليه أن وفقه الله لتلك الأعمال ، فعلى التحقيق الله هو الفاعل ، فجل شأنه قد فعل ونسب إليك .

وعن هذا قال القشيري رحمه الله في تفسير قوله تعالى { بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان} : مَنْ لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإنْ رآها مِنْ نَفْسه كان شِرْكاً، وإنْ رآها لنفسه كان مكراً فكيف يمن العبد بما هو شِرْكٌ أو بما هو مكر؟ !والذي يجب عليه قبول المِنَّة.. كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّة؟! هذا لعمري فضيحةٌ! بل المِنَّةُ لله؛ فهو وليُّ النعمة. ولا تكون المنةُ منةً إلا إذا كان العبدُ صادقاً في حاله، فأمَّا إذا كان معلولاً في صفة من صفاته فهي محنةٌ لصاحبها لا مِنَّة.والمِنَّةُ تُكَدِّرُ الصنيعَ إذا كانت من المخلوقين، ولكن بالمِنَّةِ تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله .

بل إن الشيخ ابن عجيبة رحمه الله يرى في أن كل مَن غلب عليه الجهل حتى مَنَّ على شيخِه بصُحبته له، أو بما أعطاه، يقال في حقه:










{يمنون عليك أن أسلموا }.
ولذلك قال شيخنا في بعض حكمه : كفى بالذاكر غفلة أن لا يشهد من أجرى الذكر على لسانه { وما يذكرون إلا أن يشاء الله }.
كما قال: لو زال عنك وهم خيال أنك فاعل، لسجد فؤادك شكراً وتعظيماً لمن فعل{والله خلقكم وما تعملون}
ـ بل قال مشايخنا بأن المريد الصادق إن وجد الدنيا بحذافيرها أنفقها ولا يبالي ، وإن لم يجد ما ينفق لا يبالي ، لأن مراده هو مراد مولاه ، وكل ما ينفقه في الطريق إنما هو لله ، لا يقصد بذلك شهرة ولا ثناء من الخلق ولا غير ذلك ولا من شيخه أيضاً ، إن كان كامل الصدق.









٣٢
وَمَا دُمْتَ تَتَخِذَ الطِـرِيقَ وَسِيلَـةً
لِتَجْمَعَ مَـالَ النّـَاسِ أَبْشِـرْ بِالـصَـدِ



كثيراً ما نرى من البعض ممن يسيرون في الطريق يتخذونه حرفة يتكسبون منها ويجمعون من خلالها الأموال ، وأحياناً لقضاء مصالحهم وحاجاتهم هم وذويهم ، ومثل هذا السلوك منبوذ ولا يزيد السالك إلا صدوداً وبعداً ، ولذلك نبهنا شيخنا في هذا البيت لمثل هذه السلوكيات في هذا البيت لنحذرها ونتلافاها.



لأن هذا السلوك يتنافى مع شرط الإخلاص ، لكون المريد آنذاك لم يقصد من سيره وسلوكه وجه الله ، بل أراد جمع المال وقضاء بعض مصالحه وحوائجه ، فيا لتعاسة مثل هذا المريد ، أما وصله قول نبينا الكريم (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم) ويكون المريد بسلوكه هذا على خطر عظيم ، واسمع لشيخنا وهو ينبه على ذلك في الياقوتة إذ قال:





يا عابد الرحمن فاقصد وجهنا
لا تلتفت للغير تقصد خلقنا
كن صادقاً بإرادة في حبنا
نطوي الحجاب وتنجلي أسرارنا
إن العبادة لا تنال قبولنا
إلا لعبد خالص ومريدنا









وفي هذا يُحكى أن أحد المريدين نزل على زاوية شيخه ضيفاً ، فأقراه ثلاثة أيام ثم قال له : يا ولدي قد انتهت مدة الضيافة . فقال المريد : إنما جئتُ لأتصوف ، فقال الشيخ : ليس التصوف عندنا أن تصف قدميك وغيرك يمونُ لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ، ثم تصوف ، ثم اجعل منشارك مسبحتك ، واذكر على دقات الفأس والمكوك .

ـــ وأكدعلى ذلك الإمام الحداد فقال : واعلم أنه لا يتعين على الإنسان إذا أرادالدخول في طريق الله أن يخرج من ماله إن كان له مال أو يترك حرفته وتجارته إن كان محترفاً أو متجراً ، بل الذي يتعين عليه تقوى الله فيما هو فيه والإجمال في الطلب بحيث لا يترك فريضة ولا نافلة ، ولا يقع في مُحَرم ولا فضول لا تصلح الاستعانة به في طريق الله .










٣٣
فَـخُذْ سُـلمَ التسليمِ مِعْـرَاجُ وصلِنـا
وَسَـبِـحْ لِـرَبِـك بِالـوِدَادِ مَـعَ الـزُهْــد



يبين الشيخ أن سير المريد ووصاله بالله أساسها ومدارها على التسليم الكامل لله ، القائم على تنزيه الله بالحب والوداد ، المتمثل في تخلية القلب مما سواه.

وانظر كيف بين لنا مولانا أفضل الناس وأحسنهم فقال جل جلاله{ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن}، أي لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ، أي أسلم ذاته وحقيقته بالكلية لعلمه أن { كل شئ هالك إلا وجهه}.

ثم انظر كيف زكى الله خليله إبراهيم عليه السلام فقال جل شأنه { إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين }فقد سارع الخليل معلناً لربه أنه مستسلم لله رب العالمين ، أي مستسلم لحكمه منقاد إليه بكليته متبرأً من حوله وقوته ، لذلك قال سهل بن عبدالله : كانت ملة إبراهيم السخاء ، وحاله التبري من كل شئ سوى الله.

لذلك قال بن عجيبة في تفسيره: فلا يكمل إيمان العبد حتى لا يجد في نفسه حرجًا من أحكام الله، القهرية والتكليفية، ويسلم لما يبرز من عنصر القدرة الأزلية، كيفما كان، فقرًا أو غنى، ذلاً أو عزًا، منعًا أو عطاء، قبضًا أو بسطًا،







مرضًا أو صحة، إلى غير ذلك من اختلاف المقادير. ويرضى بذلك ظاهرًا وباطنًا، وينسلخ من تدبيره واختياره إلى اختيار مولاه فهو أعلم بمصالحه، وأرحم به من أمه وأبيه.

ـ وانظر كيف عاتب الله نبيه فقال جل شأنه{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً } * { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيۤ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيۤ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً }

وقال بن عجيبة في تفسيرها : في الآية الأولى حث على التفويض وترك الاختيار، مع ما أمر به الواحد القهّار. وفي الحِكَم: " ما ترك من الجهل شيئاً مَن أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهر الله ". فالواجب على العبد أن يكون في الباطن مستسلماً لقهره، وفي الظاهر متمثلاً لأمره، تابعاً لسُنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولِمَا يُوجب رضاه










ومحبته. وفي الآية الثانية تنبيه على أن خواص الخواص يُعاتبون على ما لا يُعاتب عليه الخواص. والخواص، يُعاتبون على ما لا يعاتب عليه العوام، فكلما علا المقام، واشتد القرب، اشتدت المطالبة بالأدب، ووقع العتاب على أدنى ما يخل بشيء من الأدب، على عادة الوزراء مع الملك. وذلك أمر معلوم، مذوق عند أهل القلوب.

وقال النصر آباذي: سلامة النفس في التسليم وبلاؤها في التدبير.

كما قال سيدي عبدالقادر الجيلاني في كتابه فتوح الغيب: لا تختر جلب النعماء ولا دفع البلوى، فالنعماء واصلة إليك إن كانت قسمك استجلبتها أو كرهتها، والبلوى حالة بك إن كانت قسمك مقضية عليك سواء كرهتها أو رفعتها بالدعاء أو صبرت وتجلدت لرضا المولى، بل سلم في الكل، فيفعل الفعل فيك، فإن كانت النعماء فاشتغل بالشكر، وإن كانت البلوى فاشتغل بالتصبر والصبر، أو الموافقة والتنعم بها.

ـــ قال بن عجيبة في تفسيره:أهل التوجُّه والرياضة يفرحون بما ينزل بهم، مما يثقل على نفوسهم، كالفاقات والأزمات،









وتسليط الخلق عليهم، وغير ذلك من النوائب لتموت نفوسهم فتحيا قلوبهم وأرواحهم بمعرفة الله، والذين في قلوبهم مرض كالوساوس والخواطر يفرُّون من ذلك، وينظرون - حين يرون أمارات ذلك - نظر المغشي عليه من الموت، فالأَوْلى لهم الخضوع تحت مجاري الأقدار،والرضا والتسليم لأحكام الواحد القهار.

ـ كما قال الحسين بن منصور: من أراد أن يذوق شيئاً من هذه الأحوال فلينزل نفسه إحدى ثلاث منازل: إما أن يكون كما كان في بطن أمه مُدَبَّرَاً غير مدبِر مرزوقاً من حيث لا يعلم ، أو كما يكون في قبره ، أو كما يكون في القيامة.





والتسليم لابد وأن يصحبه الزهد ، وهو أن تزهد في كل شئ سوى الله ، ولذلك قال بن عجيبة رحمه الله: الزهد هو خلو القلب من التعلق بغير الرب.

وحصول الزهد في الدنيا والقناعة منها، فيها شرف العبد وكماله، وسبب محبته عند مولاه. لقوله صلى الله عليه وسلم: "ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس."

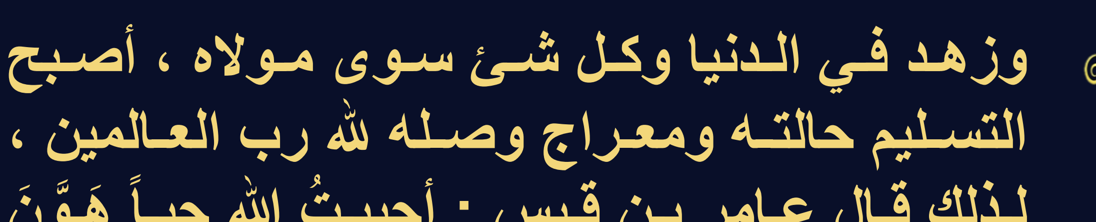


لأن المريد متى أحب مولاه فرَّغَ قلبه مما سواه ،









وزهد في الدنيا وكل شئ سوى مولاه ، أصبح التسليم حالته ومعراج وصله لله رب العالمين ، لذلك قال عامر بن قيس : أحببتُ الله حباً هَوَّنَ علي كل مصيبة ورضَّاني بكل بلية ، فلا أبالي مع حبي إياه علام أصبحت وعلام أمسيت.

















المراجع



١ــ القرآن الكريم.

٢ــ السنة النبوية.

٣ــ ياقوتة الوصايا والحكم للشيخ جابر بغدادي .

٤ــ كنوز الإشارات للشيخ جابر بغدادي .

٥ــ تفسير القرآن الكريم للفخر الرازي .

٦ــ تفسير البحر المديد لابن عجيبة.

٧ــ الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية للإمام محمد بن أحمد البوزيدي .

٨ــ مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح لابن عطاء الله .

٩ــ آداب المريدين للسهروردي .

١٠ــ لطائف المنن

١١ــ الغنية للشيخ عبد القادر الكيلاني.

١٢ــ الرسالة القشيرية للإمام القشيري .

١٣ــ تفسير التأويلات النجمية للإمام بن عمر .

١٤ــ جوامع آداب الصوفية لأبي عبدالرحمن السلمي.














١٥ــ البرهان المؤيد لسيدي أحمد الرفاعي.
١٦ــ الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري.
١٧ــ الأقمار المشرقة لأهل الشريعة والطريقة والحقيقة للشيخ عبدالسلام العمراني الخالدي.
١٨ــ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر للشيخ الشعراني.





